

رواياتي
Rwaiaty.com
الطبعة الثانية
رواية
بِلُونَك
إسلام عبد الباقي

للمزيد من تحميل الروايات و الكتب زوروا موقعنا من الرابط التالي :-

www.rwaiaty.com

و تفضلوا بزيارة جروب الفيس بوك الخاص بنا (جروب رواياتي)

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

https://www.facebook.com/groups/Rwaiaty/

كما يمكنكم متابعتنا ومراسلاتنا علي الصفحة الرسمية علي الفيس بوك

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

https://www.facebook.com/Rwaiaty.Rwaiaty/



رواية

بِدُونَكْ

إسلام عبد الباقي

دار بيوند للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى

الكتاب: بدونك

المؤلف: إسلام عبد الباقي

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: محمد علي

المقاس:20*14

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

تنسيق وتحرير: سوزان خليفة

رئيس مجلس الإدارة

محمد عزالدين

المدير العام

صبرينة غلمي

Beyond for Publishing and Distribution
+2 01095600007
beyond.dbh@gmail.com
www.facebook.com/beyond.PDH

إهداء إلي روح والد صديقي .....

أشرف ابن يوسف السحلي

إلى إخوة لم تلدهم أمهاتنا

إلى إخوة لن تفرقهم الظروف

إلى أحباب غابوا عنا

(أبن يوسف السحلى)

كم هي جميلة أحلامنا، و كم هي مؤلمة لطمة الواقع.

بقدر جمال أحلامنا، يكون الواقع مؤلماً..

بحجم صفاء أحلامنا و نقائها، يصفعنا الواقع بغدره..

بتول الشرع.

الفصل الأول:

الحلم

عندما يصبح الحلم حقيقة ولكن...

أمام واحد من البيوت القديمة ذات الطابع المعماري الإيطاليّ، والذي تتميز به كل بيوت ذلك الحي الهادئ نوعًا ما عن باقي أحياء محرم بك بالإسكندرية،وقفت سيارة أجرة، ثبتت على واجهة البيت لوحة نحاسية مذهبة كتب عليها "منزل عائلة رجائي"..

بالأمام هناك شاب في أوائل العِقد الثاني من عمره، طويل القامة ممشوق الجسد هادئ الملامح مع مسحة من الوسامة ولحية خفيفة مهذبة، ينظر خلفه بعينٍ بُنية اللون تتلألأ فيها دموع تأبى السقوط، يحمل بيده حقيبة سفر صغيرة، وباليد الأخرى يُلوح لسيدة نحيلة الجسد، متوسطة الطول، ترتدي وشاحًا أسود اللون، وتجاعيد وجهها تدل على أنها قد تعدت الستين من عمرها، تقف بجوارها فتاة خمرية البشرة ذات عينين عسليتين تترقرق فيهما دموع أظهرت لمعتهما، وقفتا على درج السُلم، و من خلفهما باب خشبي عتيق مزخرف بنقوش إيطالية قديمة مفتوح على مصراعيه، يلوحان بأيديهما، و حينما فتح الشاب باب السيارة الخلفي ليضع حقيبته؛ تناهى لمسامعه صوت نهنهة السيدة، التفت خلفه ليجدها متجهة نحوه بخطى حاولت أن تكون سريعة إلا أن ساقيها اللتين أضمرهما العمر لم يساعداها.. وبكلمات مهزوزة من أثر البكاء تستجديه أن يبقى:

- هتسيبنا لمين يا سامر؟! فكَّر تاني يا ابني، إحنا مالناش غيرك.

ترك حقيبته وأسرع تجاهها بلا إرادة.. قبَّل يديها مبللّهما بدموع لم تستطع الصمود أكثر من ذلك، احتضنها بقوة مقبلًا وجنتها التي بللتها الدموع.. ومن خلفها تقف الفتاة تبكي هي الأخرى.

لم يقطع تلك اللحظة الحزينة إلا صوت نفير مزعج متواصل من السيارة المتوقفة؛ ليطل وجه سائقها من النافذة غاضبًا:

- أبوس إيديكم، أنا تعبت من الوقفة، والبنزين اللي بيتحرق دا بفلوس.

نظرت إليه السيدة نظرة استجداء واضعة يدها على صدرها تتوسله:

- استنى يا ابني شوية خليني أشبع منه..

نظر إليه "سامر" وأشار بيده قائلًا:

- مالك بس يا "أبو آية"، هو أنا مسافر كفر الشيخ وراجع! دي فرنسا.

قالها بصوت تخنقه الدموع.. الأمل في الغد القادر على تحقيق حلمه النائم بين أحضان الروتين المتشعب كجذور أشجار.

وبصعوبة انفلت "سامر" من بين أحضان والدته ليتجه إلى السيارة وما زالت عينه متعلقة بعيني والدته، الحلم ليس هنا.. يجبره الحلم على ترك روحه بمكان والانتماء بجسده لمكان آخر.

أصعب شعور أن تكون كارهًا لِمَ أنت أصلًا له مُحب، أو أن تكون كارهًا له ولكن بحُب!.. كلمتان متضادتان، ولكنهما مع "سامر " أصبحتا مرادفًا لمعنى واحد فقط هو: "الحُلم".. ومهما كانت قسوة الفراق لن تكون أكثر قسوة من أن يصبحَ كأسنان تروس تدور داخل ساعة لا تلمحها عين؛ فيعيش بروحه زمنًا غير ذلك الذي يتمناه.. لذلك، أسرع يفتح باب السيارة، وجلس على المقعد المجاور للسائق، وأطلَّ ملوِّحًا بيده.. يودعهما قبل أن يُعيد تفكيره مرة أخرى ويغلبه حبه.. ويبقى.. لتضيع منه آخر فرصة قد تُعيد له نفسه.

عادت الأم والفتاة إلى داخل المنزل قبل أن تختفي السيارة عن الأنظار. أغلقت الفتاة الباب، وأسندت ظهرها عليه بحزن يأكل تفاصيلها. خطت الأم بتثاقل وبدموعٍ لم تجف بَعد.. تعلم جيدًا خيبات الأمل التي يشعر بها "سامر" داخل وطن يلفظ أبناءه، ظلت تسيرُ ببطء متجهة إلى غرفتها، ولكن قبل أن تدخل أوقفتها الفتاة وهي تحاول إخفاء حزنها خلف ستار ابتسامة مصطنعة:

- رايحة فين يا ماما؟!

نظرت لها الأم، اجابتها بصوت مبحوح يعتصره الحزن..

-داخلة أنام.

نظرت الفتاة إلى الساعة المعلقة على الحائط بجانبها ثم أردفت قائلة:

- تنامي إيه يا ماما! الساعة لسه سبعة إلا ربع، استني هحضر لك حاجة تاكليها.

حثت الأم خُطاها نحو الغرفة قائلة بدون اكتراث:

- أنا مش هادوق الأكل إلا لما أطمن على أخوكِ يا قمر..

بريق الحلم، والشهرة، والأضواء غازل "سامر" وهو جالس بجانب السائق ينظر من نافذة السيارة شارد الذهن تلح على ذاكرته ملامح والدته الغاضبة عندما دخل المطبخ من خلفها ليخبرها بقرار سفره..

- تسافر فين يا سامر؟! وأنا وأختك ما فكرتش هتسِبنا لمين؟! من يوم ما أبوك اتوفى واحنا مالناش غيرك، إنتَ راجلنا وسندنا.

ردَّ عليها بنبرة يأس قائلًا:

- أعمل إيه طيب؟! ما سِبتش مكان إلا لما رُحته، مفيش باب إلا لما دقيته، مابقاش فاضل حاجة ماعملتهاش، كل الأبواب اتسدت في وشّي، وحلمي كل شوية بيتطفي.. بقيت زي الحديد المصدي مش نافع لا لنفسي ولا ليكم..

- وناوي تسافر فين إن شاء الله؟!

- باريس يا أمي، قالها بنبرة ساخرة...

نظرت له بغضب:

- إيه! أنا قُلت هتسافر بلد جنبنا تبقى قريب مننا إنما بلد خواجات لأ يا سامر.

ابتسم "سامر" محاولًا مداعبة والدته، ولكن لم يجدِ ذلك نفعًا؛ رمقته والدته بنظرة حادة، ثم تركته وسط حيرته، وخرجت من المطبخ متجهة إلى غرفتها، جلست على أريكتها، ومن خلفها "سامر" يحاول استعطافها بشتى الطرق..

- جنبنا إيه بس يا أمي! بقولِّك حلمي ومستقبلي مش هروح كفر الشيخ يعني.

ردَّت بصوتٍ غاضبٍ ونظرات شنتها الخوف من أن يتركهما ويرحل:

- لأ يا سامر. مفيش سفر برَّه مصر..يا قمر، يا قمر.

فأجابتها من غرفتها المجاورة، وأسرعت وهي تصفف شعرها المبلل.

- تعالي يا قمر اسمعي أخوكِ عايز يعمل إيه!

حادت قمر بنظراتها تجاه سامر، والأم تنظر إليهما قطعت صمتهما قائلة بغضبها الثائر:

- هو انتِ كمان كنتِ عارفة بموضوع السفر يا قمر؟!

- لا لا لا، أنا ما أعرفش حاجة يا ماما.

قفز "سامر" جالسًا على الأريكة بجوار والدته بحب وظل يُقبِّل جبينها ويديها.

- ما تزعليش يا أمي، والله أنا ما أقدر على زعلك، بس بذمتك إنتِ ترضي باللي أنا فيه؟

- ما البلد واسعة يا سامر! دَوَّر تاني، وإن شاء الله هتلاقي، وربنا يتقبل دعايا ليك كل أذان، بس بلاش سفر يا ابني والنبي.

قام من جانبها وتحرك ببطء ناحية الشرفة، أزاح الستار الذي يغطي بابها، ثم دفع الباب ليصدر صريرًا مزعجًا.. وتنهد بعمق قائلًا:

- أنا اتخنقت يا أمي، البلد الواسعة دي بتيجي لحد عندي، وتبقى أوضة ضيقة، وضلمة أفضل ألفّ جواها، وأتخبط في حيطانها.. لحد ما أحس إني في مقبرة، أرجوكِ يا أمي سيبيني أشوف حلمي، ومستقبلي.

ردَّت عليه أمه بحزنٍ:

- وأنا مين يكمِّل حلمي يا سامر؟! إنت وأختك كل اللي ليَّ في الدنيا وماليش غيركم.

أسرع "سامر" نحوها، ثم جثا على ركبتيه، وأمسك بيديها وقبلهما في حنان ثم نظر إليها قائلًا:

- وأنا مسافر عشان أحققلك الحلم ده.

ثم نظر إلى قمر التي وقفت تبكي في صمتٍ، قائلًا:

- هي ناقصاكِ يا قمر!

تنقل ببصره بينهما ثم قال بنبرة حازمة لا تخلو من الحزن:

- بقولّكم إيه، أنا هسافر يعني هسافر..

نظرت له الأم بحنان:

- أنا خايفة عليك يا ابني وقلبي مقبوض من السفرية دي..

- يا أمي بطّلي خوف عليَّ، أنا كل ما أقولّك رايح حتة تقوليلي كدا..

- لأ يا سامر، المرة دي مختلفة، قبل كده كنت بتبقى قريب برضو مني.

تنهَّد قائلًا:

- طيب أنا هجرب شهر أو شهرين، لو ما قدرتش أكمل هرجع..

نظرت إليه بعينين يملؤهما الحزن واللهفة واشتياق قد أصابها قبل البعاد بكثير.. ثم قالت:

- طب سِبني أفكر..

- لأ، تفكري إيه، عشان خاطري يا أمي وافقي.

- مش قادرة يا ابني أقولّك ببساطة كدا موافقة تسِبني وتمشي، دا انت وحشتني بس عشان قُلت هتسافر أُمّال لما تسافر هعمل إيه؟!

ردَّ "سامر" بسخرية:

- هارسملك صورة كبيرة ليَّ، وهعلقها وراكِ هنا..

قاطعتهما قمر بنبرة مرحة:

- بقولّكم إيه، إحنا مش هنفضل طول اليوم نتكلم عن الموضوع ده، خلاص يا عم سافر، وخلصنا عشان محتاجة تجيبلي برفان من هناك.

استمر الحديث بين قبول ورفض.. ودموع، حتى منتصف الليل، وفي النهاية وافقت الأم على مضض، وبقلبها غصة البعد تمزق روحها.. أيقنت أن حلم ابنها الوحيد لن يتحقق إلا بالبعد عنها..

- خلاص سافر سافر.

ظل هذا الصوت يتردد في ذهن "سامر" ، حتى أعاده للواقع صوت سائق السيارة:

- إيه يا أستاذ "سامر" رُحت فين بكلمك من بدري وانت ولا انت هنا..

- لأ معاك آهو...

- طيب خلاص وصلنا بالسلامة..

- آااه.. طيب.

- آااه طيب إيه! مش ناوى تنزل؟!

نظر "سامر" إلى بوابات المطار ونبضات قلبه تتسارع.. فنان موهوب ورسام مبدع - هكذا كان أصدقاؤه يسمونه- أحاط به الإحباط من كل جانب، أوقعه حظه العثر في بلد طاردة للموهوبين، والعلماء، والمهرة في مجالاتهم.. ها هو الآن يستعد لأن يضع قدمه على أول طريق الحُلم.

ترجل من السيارة وأخذ حقيبته مسرعًا نحو بوابة المطار.. بوابة الحلم،.. انتهى من كافة الإجراءات واستقر على مقعده في الطائرة المتجهة إلى باريس.. نظر من النافذة المجاورة له

مستسلمًا لشروده مرة أخرى وسط أحلامه التي لا تنتهي.. حتى سمع صوت محركات الطائرة المنطلقة نحو حُلمه.. مدينة النور.

"الارتفاع الآن أصبح 30 ألف قدم".. هكذا قال قائد الطائرة بعد إلقاء بعض التعليمات من قِبَل المضيفين.

سكت صوت الطيّار وهدأ الجو داخل الطائرة فاستسلم "سامر" لنومٍ عميقٍ..

ثم فجأة اهتزت الطائرة ، واخترق صوت صريخ مزعج أذن "سامر" ليوقظه من نومه.. حين نظر أحد المسافرين ووجد دخانًا أسود يخرج من جناح الطائرة ومع صوت إنذار يصاحبه صوت قائد الطائرة مُرتبك بربط حزام الأمان ، وبعد لحظات ضجيج وصريخ واستنجاد بدأت الطائرة فقد اتزانها واخذت طريق السقوط فارتطم رأس "سامر" بمقعده أمامه فقد علي أثره الوعي.

أنهك البكاء جسد الأم، فاستسلمت لنوم عميق.. آملة أن يبدد النوم مرارة الانتظار، ويحرك عقارب الساعة أسرع..

أما "قمر" فتوجهت لغرفتها بروحٍ مثقلة ونفس منهكة، ألقت بنفسها على سريرها وأغمضت عينيها علَّها تسترخي ولو قليلًا.. ولكن هيهات.. طرق "سامر" باب عقلها فأبى أن يهدأ.. عاد بها لذلك اليوم، حين كانت تتحسس طريقها ليلًا لتراه وهو يرسم على حائط غرفته، رأته يرسم بقلمه الفحم ملامح رجل مبتسمٍ، في سن الشيخوخة. ألزمها فضولها حينها أن تدخل لتقتحم هدوءه.. فاجأته بسؤالها:

- إنت بترسم مين يا سامر؟!

انتفض "سامر" والتفت وراءه فزِعًا:

- حرام عليكِ يا "قمر" هرّبتِ الدم منّي..

اقتربت منه وهي تضحك لمنظره الفزِع، وضعت يديها على خصرها وأخذت تتفحص ملامح الرجل المرسوم بإعجاب، ثم سألته دون أن تشيح بنظرها بعيدًا عن رسمته:

- مين الراجل ده يا "سامر"؟!

رد وهو يضع قلم الرسم على "كomod" بجانب سريره المواجه للحائط:

- ده أخوكِ يا حبيبة أخوكِ.
- بس أخويا مش حلو كده، لأ بجد مين ده؟
- أنا بتكلم جد، ده فعلًا أنا، لكن في سن السبعين.

- وانت متأكد إنك هتعيش للسبعين؟!

تقدَّم نحوها قائلًا بنبرة ساخرة:

- أنا هعيش لحد ما أشوف أحفادك، وأحفاد أحفادك..

ردَّت عليه ساخرة:

- يبقي شكلك مطول عن السبعين يا حبيبي.

إحساس الفراغ المفاجئ يُدخِلك حتمًا إلى عالم الصمت أو يجعل منك جسدًا بلا هوية، ويُرضِخ عقلك لعمليات حسابية معقدة كثيرة. وكلما زادت محاولاتك في الوصول لنتيجة مناسبة لتلك الحسبة التي لا تنتهي، زاد ألمك حتى يجعل كل ما حولك يسير ببطء، مبدعًا في خلق أوجاع نفسية.تتجرعها بهدوء.. مصرًّا على أن يجعل الصبر حملًا ثقيلًا.. وإذا ما حاولت البحث حولك عن شيء يملأ فراغك لن تجد إلا سرابًا.. أو ربما تجد ذكريات تعود بك لنقطة البدء ليسلمك الصبر إلى دائرة فراغ جديدة تنتهي بك إما عاشقًا للانتظار أو ميتًا على قيد الحياة.. لأجل هذا رضخت الأم لنداء الطبيعة فغاصت في أعماق نوم لتوقف شعور الانتظار وتملأ الفراغ الذي تركه "سامر" بالروح، ومع قسوة الانتظار وعمق الشعور بالوحدة، وصعوبة الخوف من الفقدان، صنع العقل الباطن صورة وهمية لسقوط الطائرة، فأيقظها الحلم بصريخ مدوٍّ انتفضت على إثره "قمر" من سريرها وأسرعت متجهة إلى غرفة "الأم"، وجدتها جالسة تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، جلست جانبها بهدوء وربتت على كتفها بحنان، ثم سألتها قلقة:

- خير يا أمي في إيه؟!
- "سامر" أنا عايزة أطّمن عليه..
- لسه يا ماما هو أول ما هايوصل هايكلمنا.
- أنا مش مطمنة يا قمر وقلبي مقبوض، ياريتني ما وافقت.

احتضنتها "قمر" برفق رغم اعتصار القلق لقلبها...

يبدو أن سقوط الطائرة لم يكن إلا كابوسًا مرعبًا صنعه خوف الأم من الفقدان.

"مطار شارل دي جول الدولي المحطة الرئيسية الثالثة"

نزل "سامر" على سلم الطائرة الجاسمة بمطار شارل دي جول الدولي، مستنشقًا أولى نسائم الحرية تتخللها رائحة العطور الفرنسية الرائعة.. يخطو الخطوة الأهم نحو الحُلم.. تحرك مع باقي الركاب باتجاه الحافلة المخصصة لنقلهم إلى مبنى الاستقبال.. وقف أمامه سارحًا في كل ما حوله بإعجاب بالغ.. يتبدل هنا كل شيء، حتى ملامح البشر ليس فقط طبائعم.. مزيج من الدهشة والإعجاب.. ولكن نغص مشاعره تلك تذكُّره لبؤس الحياة في بلده، وتلك المضيفة المبتسمة المخصصة للاستقبال؛ لترحب بالضيوف في المطار -هكذا يسمونهم-....

-L'aéroport de Paris Vaus accueille

نظر "سامر" ببلاهة للمضيفات وكأنه لم يسمع شيئًا، فقط يومئ برأسه موافقًا على ما لا يستوعبه من الأصل.. استمر في السير مع من يسيرون، ولجهله باللغة الفرنسية لم ينتبه للوحات التي ترشد المسافرين لأماكن إنهاء إجراءات الدخول.

بعد أن دلف إلى صالة الوصول العملاقة حاول إيجاد هاتف عمومي ليتواصل مع مضيفه بفرنسا كما أبلغه "عماد" -صاحب فكرة السفر من الأساس-.. تلك الفكرة التي أثارتها لوحة رسمها "سامر" يوم أن ذهب ليتقدم بها في إحدى مسابقات الرسم الواقعي تم رفضه.. يومها ذهب إلى مقهى الرسامين بالقاهرة يتصبب عرقًا مستنجدا بالنادل ليحضر له مشروبًا باردًا يخفف من رمضاء حر أغسطس وشعوره بالحزن لرفض عمله بالمسابقة.

وقتها لاحظه عماد ذلك الشاب الثلاثيني القصير والذي تبدو عليه ملامح الثراء من نظارته وملابسه التي تحمل أسماء ماركات عالمية، يبحث عن مناديل ورقية ليجفف عرقه فتقدم له بواحد بكل لطف.. لمح عماد اللوحة على طاولة "سامر" فظل محدقًا بها للحظات بإعجاب فابتسم له "سامر" قائلًا:

- إيه رأيك في الرسمة تشتريها بدل ما أرجع بيها اسكندرية تاني؟

فسأله عماد بدهشة مليئة بالإعجاب:

- إنت اللي راسم اللوحة دي؟!

جاوبه "سامر" بنبرة يائسة:

- للأسف.
- ليه للأسف؟! إنت عبقري، أنا كنت متخيل إنها صورة فوتوغرافية، إنت اللي زيك مكانهم في باريس أو إيطاليا، إنت بجد موهوب..
- فرنسا إيه!! أنا آخري أروح ساقية الصاوي نُص ساعة وأرجع بلدنا.

تحرك عماد من مكانه وسحب كرسيًّا وانضم لطاولة "سامر"، ثم أمسك اللوحة متأملًا إعجازه في رسم أدق تفاصيل الملامح بإتقان بالغ وقال:

- صدقني، إنت اللي زيك في فرنسا باشوات، أنا ليَّ ابن خالتي منظِّم معارض لوحات رسم، والله لو شاف رسمك.. ممكن ياخدك عنده..
- لا يا عم ولا ياخدني ولا حاجة، خليني، أنا لو قلت لأمي إني مسافر ممكن تروح فيها
- اسمع بس سِيبلي بس الرسمة دي وأنا هبعت له ونشوف رده إيه.. قولي إنت اسمك إيه؟

مدَّ "سامر" يده مصافحًا إياه قائلًا:

- سامر..

ثم تابع "سامر" الحديث عن فرنسا واللوحات قائلًا:

- بس أنا ما أعرفش فرنساوي أصلًا....

ابتسم "عماد" وقال:

- يعني هي دي مشكلتك؟! لو هي دي هتبقى تتعلم، وبعدين هُمَّا كلمتين "جومابل سامر"، و"جوسوي تري كونتوت". قالها عماد وضحك مرحًا..

نظر له "سامر" نظرة مطولة، ثم أردف له قائلاً:

- هو انت ليه عايز تساعدني، إنت ما تعرفنيش ولا أنا أعرفك، مش ممكن عايز تسرق شغلي!

صمت عماد للحظات ولكن قطع "سامر" صمته قائلًا:

- أو ممكن تبقى من بتوع السفريات المضروبة وأروح ألاقي نفسي في سجن باريس.

قهقه "عماد" حتى ظهرت نواجذه:

- أولًا أنا هكسب منك أكتر من إني أسرق شغلك وأبيعه بإسمي، ثانيًا بقى أنا ما قُلتش إنك خلاص مسافر، أنا قُلت هشوف بس يمكن ياخدك عنده، وآسف إني تطفلت عليك قبل ما أعرَّفك بنفسي، أنا "عماد صلاح الدين الدسوقي" صائد ومُصدر المواهب.

يبدو أن الفكرة استقرت في ذهنه بعد فترة من حديث عماد وإقناعه له، وعقب كل أزمة في البحث عن فرصة يتذكر كلمات عماد عندما أخبره أن اسمه سيصبح من أهم أسماء الرسامين بأورُبَّا. وفي أحد الأيام.. بعد فترة ليست بقليلة، استبد به الملل من كل شيء حوله،

جلس بغرفته ينفث دخان سيجارته بعصبية، تذكر عماد فقام يبحث بين قصاصات أوراقه عن الورقة المكتوب عليها رقمه حتى وجدها؛ طلب الرقم واتصل بعماد:

- ألو، أيوه يا عماد إزيك، بقولّك إيه هو ابن خالتك ده لسه ما ردش عليك؟
- لأ.....

قاطعه "سامر" منزعجًا:

- لأ!! الشغل ما عجبهوش.
- أقصد لأ اتصل، بس إنت ماسِبتش فرصة أكمِّل، ده مبهور بشغلك وقالّي إنه مستعد يعملّك معرض هناك.
- طب وانت ساكت ليه يا عماد يا أخي!
- لسه قافل معايا وكنت هكلمك وأقولّك وانت سبقتني، ها نقول مبروك؟
- الله يبارك فيك..

ذكريات تراود "سامر " في كل خطوه يخطوها نحو حلمه الأكبر.. طموح كبير ملأ وجدانه، ولكن صوت رجل يتحدث باللغة العامية المصرية أعاد له واقعه من جديد، فمالَ "سامر" برأسه قليلًا من خلف رجل ضخم ينتظر في صف ختم الجوازات، سمعه يقول:

- أنا جاي مع بنتي هنا.. في واحد مستنينا عشان ميعاد العملية بتاعة بنتي وهو المضيف.

ومع اهتزاز رأس ضابط الجوازات بالرفض أو عدم الفهم، أمسك الرجل بيد ضابط الجوازات يقبّلها استعطافًا، فجأة ظهر شرطيان وتوجها إلى الرجل في سرعة وأمسكا بذراعه بلطف وجذباه بعيدًا عن الصف فتجلت من خلفه فتاة ممسكة بذراعه.. ظهرت كشروق شمس الصباح بشعرٍ يتدلى على كتفيها كسلاسل ذهبية ساحرة، ومنبع سحرها هو عينيها العسليتين.. ملامح وجهها الطفولية حرَّكت "سامر" نحوها بلا أي تردد ، فنظر إليهما مستفسرًا:

- إيه مالك في إيه؟

فردَّ عليه الرجل:

- الحمد لله إنت مصري معلش يا بني فهِّمهم إني جاي أعمل عملية لبنتي

اختلس النظر إليها ثم سأله:

- هي دي بنتك يا حاج؟
- أيوه بنتي والنبي يا ابني فهمهم، أنا بِعت كل اللي ورايا واللي قدامي عشان آجي هنا وأعملها العملية دي مش هينفع أرجع، أرجوك يا ابني.

- طيب استنى حاضر.

أمسك "سامر" بحقيبته وأخرج منها ورقة والتقط قلمًا من الشرطي ورسم على الورقة باحترافية حتى يفهم الشرطي المراد فنظرت له الفتاة سائلة:

- هو انت ما بتعرفش فرنساوي؟!

التفت لها مبتسمًا وقال:

- لأ، لكن أعرف اللي أحسن من الكلام.

حينها أشار له الشرطيان بإشارات تفهمها "سامر" فتوجهه إلى الأب سائلًا:

- معاك رقم المستشفى اللي حاجز فيها يا حاج؟
- لا، أنا معايا رقم تليفون اللي اتفق معايا وأخد الفلوس حجز لنا هو قالّي هستناك في المطار .

ثم وجَّه نظره ناحية ابنته وقال:

- "رقية" .. فين الورقة اللي إدتهالك بتاعة الراجل اللي قابلنا في المستشفى؟

نظر لها "سامر" ببريق يضيء عينيه.

- رقية.. إنتِ اسمك رقية؟

أومأت متبسمة بطريقة انطلقت كَسَهم كيوبيد استقر في قلبه وزاد من سرعة نبضاته.

لم تشفع لها ملامحها الطفولية لدى الشرطيين اللذين لم يستطيعا الانتظار أكثر من ذلك؛ فجذباها هي ووالدها بعنفٍ.. ولكن "سامر" تحرَّك بلا أي تردد وأمسك بيد الشرطي يترجاه بما أسعفه من إشارات يسأله أن ينتظر لحظات، ثم أخرج من جيبه ورقة مدوَّن عليها رقم هاتف وترجى الواقفين في أن يمنحه أحدهم هاتفه، لم يستجب لرجائه سوى رجل فرنسي خرج من وسط الصف وأعطاه هاتفه الذي التقطه منه في سرعة و بإشارت تعبر عن شكره.. طلب الرقم ووضع الهاتف على أذنه وانتظر حتى أتاه صوته محدثه مجيبًا اتصاله أخيرًا.

- ألو أنا "سامر" من طرف عماد، أنا عندي مشكله في المطار ومش عارف أتصرف فيها وما أعرفش ولا كلمة فرنساوي.

يبدو أن الرجل قد طمأنه ليرد "سامر":

- طيب أنا في الانتظار.

أعطى الهاتف لصاحبه مبتسمًا بامتنان، ثم توجه إلى الشرطيين مشيرًا لهما أن انتظرا، ولكن تفاجأ "سامر" بالرجل الفرنسي الذي أعاره هاتفه يتوجه للشرطيين متحدثًا إليهما، ولاحظ ابتسامتيهما، فتحدَّث "سامر" للأب المصري قائلًا:

- ما تقلقش إن شاء الله خير.

تلألأت الدموع في عين الرجل الذي منعه كبرياؤه كل هذا الوقت من أن يبكي، وانهار متحدّثًا إلى سامر:

- والله يا ابني أنا بعت كل حاجة في مصر عشان آجي هنا وأعالجها ما عنديش غيرها في الدنيا، وده آخر أمل لينا.

كان يبدو من تجاعيد وجهه أنه قد تعدى الخمسين من عمره، ذو بشرة سمراء وملامح طيبة، وجسد نحيف أظهر نحافته أكثر طول قامته، وتلك التجاعيد جعلت إحساس "سامر" بالشفقة عليه يزداد خاصة بعد أن سمعه يقول "إنها الأمل الأخيرة في شفاء ابنته".

أخذ "سامر" يفكر في كل ما حدث ويحدث.. فقد جمع القدر الحلم والأمل في مكانٍ واحدٍ؛ حلم "سامر" بإبقاء موهبته على قيد الحياة وأمل الأب في بقاء ابنته على قيد الحياة أيضًا! وكلاهما يبقيه حلمه على قيد الحياة.. كلاهما فرصتهما الوحيدة هنا.. ومن يقدر على الاستغناء عن الأمل في تحقيق حلمه.. فحلم بلا أمل كإنسان ميت وسط الأحياء.

صدفة جمعتهما في باريس.. فالأب ليس لديه ما يفعله أكثر من أنه باع كل ما يملك من أجل أن يمحي الخوف المصاحب لابنته في كل ليلة.. وليس في وسع "سامر" أن يفعل أكثر من أنه ترك ذكرياته و وطنه وأخته ووالدته المكلومة للبحث عن فرصة تطمئنه على مستقبله الذي بات غامضًا في وطنه..

قدر غريب جمع بين "سامر" بخوفه على مستقبله الغامض، و أب خائف على مستقبله مع الحياة و الذي يتمثل في شفاء ابنته!، و لكن مشاعر الأب هي الأصعب.. فأشد أنوع الألم أن تنتظر النهاية كل يوم.. في كل ليلة يأخذ الألم من وجداننا جزءًا إلى أن نصبح بلا هوية، فارغين؛ مغلفين بالآلام، نعاني من انكسار يبدو إصلاحه صعبًا وبعيدًا؛ لذلك، لم يستطع الأب إخفاء انكساره و خوفه؛ خوفه من أن يستيقظ يومًا في جوف الليل فيجد ابنته الوحيدة قد فارقت عالمه لتصبح بعد ذلك مجرد صورة بشريط أسود معلقة على حائط بلا جسد ولا روح.

قطع أفكار سامر في مفارقات القدر صوتُ ارتطام فنظر خلفة ليجد "رقية" على الأرض مغشيًا عليها.

الفصل الثاني:

الذكريات

البـداية

كم هـي مُربكـة الحيـاة بـدونـها! لـم أكـن أعلـم أنـهـا ستصبح ذات يـوم صورة مرسومة علي جدران الذكريات.. كانت هي الحلم.. كانت هي أنا.

في غرفة ضيقة، ليس بها شيء سوى لوحات لوجوه أشخاص بملامح مختلفة، يدخلها بالكاد شعاع ضوء خافت من نافذتها الصغيرة، و سرير حديدي، و مكتب خشبي بني اللون على سطحه قصاصات أوراق مبعثرة، ومقعد خشبي دوار. يجلس شاب يرتدي ملابس رياضية بيضاء و على رأسه قبعة تلقي ظلها على وجهه فلا تُظهِر ملامحه جيدًا.

وقف الشاب وتحرك باتجاه لوحة لوجه فتاة، تأملها وهو يزفر دخان سيجارته وبعد لحظات شرود، عاد إلى مقعدة المجاور للمكتب و مسك القلم يكتب:

"كان لقاؤنا الأول.. كنتِ كسطوع شمس النهار بعد ليل مظلم طويل، أشتاق إليكِ دومًا يا محبوبتي.. ما زلت أنتظر القطار، و أنا ما زلت على عهدي بأنني سأظل مجنونك"

(أحبك حتى الموت)

ترك قلمه وأراح رأسه للخلف ينظر للسقف بشرود زافرًا دخان سيجارته المتهادى دخانها الأبيض مرتفعًا.

أمام باب المشفى توقفت سيارة الإسعاف ترجل منها الأب وسامر ومن خلفهما سيارة سوداء خرج منها رجل ذو ملامح شرقية؛ عينان واسعتان و شارب كث يخفي شفتيه، هرول الرجل خلفهما وهما يولجان إلى داخل المشفى مهرولين بجانب سرير نقال تستلقي عليه "رقية" فاقدة الوعي متجهين إلى باب الطوارئ الرئيسي.

ربت "سامر" على كتف "الأب":

- ما تقلقش يا حاج إن شاء الله خير.

رفع الأب رأسه ناظرًا لأعلى يدعو الله بعينين باكيتين:

- يا رب ما توجعنيش فيها، ما ليش غيرها في الدنيا.

صمت "سامر"؛ فلن تفيد الكلمات في ذلك الموقف، ولن تقلل من آلام الأب.

ما إن وصلوا إلى باب غرفة الطوارئ حتى أفلت "سامر" يده من السرير الراقدة فوقه "رقية"، ربت على كتف الأب الشاحب الفزِع، ظلا ينظران من خلف نافذة زجاجية مستديرة يشاهدانها و هي تغيب عن الأنظار، هرول الرجل ذو الملامح العربية من خلفهما متجهًا نحوهما يلتقط أنفاسه بصعوبة يتصبب عرقًا و ينادي على "سامر"، نظر "سامر" ناحية الصوت وما إن رآه حتى قال:

- أستاذ "حسن" الحمد لله إنك وصلت معانا، إنت أنقذتنا.

ردَّ عليه الرجل بعدما هدأت أنفاسه قليلًا:

- الحمد لله، المهم هي عاملة إيه؟

نظر له الأب بنظرة قلق:

- ادعيلها.
- إن شاء الله خير.

قالها الرجل للأب بنبرة ملؤها الأمل، ثم أردف قائلًا:

- ممكن أستأذنكم نقعد في كافتيريا المستشفى، عشان نكمل بعض الإجراءات المطلوبة.

ذهبوا سويًا إلى الكافيتريا، جلسوا إلى إحدى الطاولات فجاءهم النادل ليسألهم ماذا يطلبون، فنظر حسن لهما سائلًا:

- تشربوا إيه؟

هزّا الاثنان رأسيهما رفضًا، فأخبر حسن النادل أنهم لا يريدون شيئًا فانصرف الأخير.

توجه "سامر" بحديثه إلى حسن قائلًا:

- أنا بجد بشكرك أستاذ "حسن" لولا إنك كنت أصلًا موجود في المطار منتظرني مش عارف كنت عملت إيه.

- الشكر دا مش ليا أنا، الشكر دا يتقال لصاحب الخدمة ولولا علاقاته الكبيرة ما كانش الحاج خرج من المطار و كانت "رقية" في سرير في مستشفى الصليب الأحمر، المستشفى دي من أفضل المستشفيات الموجودة في باريس.

نظر إليه "سامر" باستغراب ثم سأله:

- هو انت مش ابن خالة "عماد"؟
- لأ طبعًا، أنا بشتغل معاه بس.
- لكن هو قالي إن في واحد اسمه "حسن" هو اللي هيقابلك.
- أيوه فعلًا، أنا هفهمك كل حاجة، نطمئن الأول على الآنسة "رقية" و بعدها هنروح ل"محسن" بيه.

أومأ "سامر" برأسه، ثم نظر للأب بحنان و ربَّت على كتفه يطمئنه:

- إن شاء الله خير، و هتقوم وتبقى أحسن من الأول.

ردَّ عليه الأب بنبرة حزينة:

- يا رب يا "سامر" يا ابني.

بعد لحظات صمت، أخرج "حسن" علبة السجائر وأشعل منها سيجارة، مد يده لسامر بواحدة فالتقطها بشغف، أشعلها وشهق من دخانها وزفره في حب.

ما زال ذلك الشاب ذو الملابس الرياضية والقبعة التي تخفي ملامحه يجلس في غرفته التي عبقها دخان السجائر المتراقص برشاقة حول مصباح الغرفة يدور في الجو إلى أن يتلاشى بظلام الغرفة. يكتب على قصاصات أوراقه بعينين اتخذت دموعهما مجراها على وجنتيه:

"لقد حزنت أكثر منك يا حبيبتي.. ففكرة أنك تتألمين ضاعفت من حزني.. ما زالت صورته محفورة بوجداني لم تفارقني أبدًا بوجهه الأسمر وابتسامته المضيئة.. لم أستطع فعل شيء يا محبوبتي إنه الموت وقد سبق قطاره قطارنا.. وأنا ما زلت في الانتظار."

ترك قلمه وأشعل سيجارة غير التي انتهت، ثم قام من مكانه في هدوء وتوجه نحو حائط معلق عليه لوحة مرسومة بالرصاص لرجل ذي وجه أسمر بدموع تلألأ على اللوحة.. نفث دخان سيجارته وبقي ناظرًا بشرود.

أثناء جلوسهم في الكافتيريا وسط حالة من الصمت المشوب بالقلق، ووسط بكاء الأب الذي لا ينقطع، جاء الطبيب ليخبرهم بحالة "رقية" فتحدث إليه حسن لأنه الوحيد الذي يجيد الفرنسية، وبعدما انصرف الطبيب، أخبرهم حسن بما قال:

- الدكتور طمّني دلوقتي، وقال إن الحالة استقرت، لكن الوضع محتاج عملية فعلًا وفي أقرب وقت، المرض بدأ ينتشر بالمخ، وكل يوم بيعدي هيبقى في خطر عليها

رسم الحزن على وجه "سامر" ملامح أخرى، والأب ببكاء قارب على الانهيار توسل لهما:

- ساعدوني بالله عليكوا، أنا عارف إنكم ساعدتوني وانتم ماتعرفونيش ووقفتوا معايا في المطار بعد ما ضاع مني رقم المضيف بتاعي، بس أنا ما ليش حد دلوقتي و بنتي بتموت، أرجوكم، إنتوا الأمل الوحيد.

ثم انحنى يمسك بيديهما ليقبلهما، أفلت "سامر" يده وحاوط الرجل بذراعه ليستقيم، وقال له بشفقة:

- "رقية" مش هتموت يا حاج، وإحنا معاك للنهاية.

بينما قال حسن:

- المشكلة إن "محسن" بيه هو الضامن ليكم لمدة اسبوع واحد بس لحد ما تيجيبوا المضيف بتاعكم، أو هيرحلوكم تاني إلا إذا...
- إلا إذا إيه؟!
- أنا عارف إن الموضوع غريب، بس الناس دي مالهاش غيرنا بعد ربنا في البلد دي.

أومأ "حسن" ثم قال شاردًا كأنه يفكر في شيء ما:

- طيب أنا بس هروح أشوف العملية دي تكلفتها إيه، وبعدها هنشوف الحل.

تركهما واتجه إلى إدارة المستشفى.

أخذ "سامر" بيد الأب وجذبه بحنان ليذهبا إلى غرفة الطوارئ للاطمئنان على "رقية"، وصلا إلى الممر الموجود به الغرفة، أوقفها رجل ضخم يرتدي زي الأمن الخاص بالمستشفى، وأشار لهما بالجلوس على مقاعد الانتظار.

جلس الاثنان متجاوران، اخذ الأب يردد بصوت هامس مسموع:

- اللهم أنا عبدك وهي أمتك، فخُذ عبدك واترك أمتك.

تمتم بها مغمض العينين، تنبض شرايين رأسه البارزة بوضوح.. رآه "سامر" في هذه الحالة وهكذا فتوجه مسرعًا إلى رجل الأمن وأشار إلى "الأب" تفهمه الرجل فذهب لاستعداء الطبيب.

تابع "سامر" رجل الأمن حتى رآه يدخل من باب آخر، فدفع الباب ثم دلف يبحث عنها بين الغرف يمينًا ويسارًا.

شيء خفي يدفعه إليها، ليس فقط شفقة على حال والدها ورغبته في أن يطمئن ذلك الكهل على حال ابنته، ولكن شيئًا بين الضلوع رغمًا عنه ينبض متعديًا القلق والخوف من الفراق.. شيء أقوى منهما ومن الشفقة يجذبه للحاق بها إلى أي مكان حتى وإن كان على سرير مستشفى وهي فاقدة الوعي.. قلبه الشغوف بحلم الشهرة وباريس قد اختفى فجأة بلا أي إرادة منه وأصبح القلب معلقًا بملامحها الطفولية.. "رقية" تلك الشمس التي أشرقت بداخله وأشاعت ضياء بعد ظلام، أصبحت لا تسكن أعماقه فقط لكنها امتلكت عقله وقلبه، صورة مرسومة بملامح دقيقة بقلم رصاص لا يستطيع محوها.

حقًا كما يقولون إن: "أرواح المحبين تتلاقى من قبل أن تلتقي الأجساد"..

شوق "سامر" لرؤيتها أصبح جنونيًّا، أخذ يبحث عن مكانها بشغف حتى سمع بآخر الرواق صفير أجهزة طبية، وأصوات متداخلة، ذهب نحوها مسرعًا.. وجد "رقية" ملاكًا مغمض العينين في سكون يحيط بها أطباء ومسعفون يحاولون إفاقتها.

وقف يراقب الموقف بقلق من الدائرة الزجاجية المطلة على الغرفة، نظراته لم تكن شفقة وإنَّما حبا صادقًا جنونيًّا مفاجئًا.. وإحساسه بالخوف الشديد والمسئولية تجاهها أكدا شعوره.. أهكذا يحدث الحب فجأة؟!

وبينما هو على حالته تلك، يراقب "رقية" في حب وخوف وقلق.. أدركه رجل الأمن فطلب منه بلطف أن ينتظر بمقاعد الانتظار.

عاد من جديد حيث يجلس الأب، حاول قدر الإمكان أن يخفي قلقه وخوفه، جلس بجانبه وربَّت على كتفيه قائلًا:

- إن شاء الله خير ...

غلف الاثنان الصمت، أغمض "سامر" عينيه وأرجع رأسه للخلف عله يهدأ قليلًا، لكن ما إن فعل حتى سمع صوت أقدام تتقدم نحوهما مسرعة، فتح عينيه، ونظر كلهما لمصدر تلك الأقدام فوجدا حسن يتقدم منهما مسرعًا فقاما من مجلسيهما وتحركا نحوه وسارعه سالم بالسؤال:

- ها عرفت تتكلف قد إيه؟

أجابه حسن بلا أي تردد:

- العملية 100ألف يورو.

اتسعت أعينهم دهشة والرجل من صدمته أخذ يردد:

- لله الأمر من قبل ومن بعد ... لله الأمر من قبل ومن بعد.

و بعدها سقط من بينهما فاقدًا الوعي تمامًا، أسرع "حسن" مناديًا على الأطباء حتى وصل طبيب، وجثا بجانب الأب بهدوء، و بعد كشف سريع وقف بملامح حزينة موجهًا حديثه لحسن. يخبره بأنه قد فارق الحياة.

مات مكلومًا غادر الحياة بقلب مُتألم موجوع، رحل بحسرة أفقدت قلبه النبض فجأة وترك "رقية" على فراش المرض وحيدة بين ألم المرض وآلام الفراق؛ المحطة الأخيرة قد حانت وتوقف القطار بمحطته وأصدر صوت صفير الانطلاق وسمعه الأب من خلف عالم خفي لا يراه ولا يسمعه إلا صاحب تذكرة الصعود ورسالة على ظهر التذكرة: (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

سقط جسده، تحررت روحه مستقلة قطار النهاية بمقعد الرضا، ابتسامته المرسومة على شفتيه و وجهه الذي تنيره هالة بيضاء تحيط بوجهه الأسمر جعلوا "سامر" يفكر أنه حقًّا هناك حياة بعد الموت ويبدو أنها حياة أجمل وأنقى وأرحم..

الموت حياة أخرى، عالم خفي، حقيقة غير مرئية، صامتة وحيادية.. هو مصدر التجدد الذي يتجاوز كلَّ ما هو معروف.. وبما أن العقل عضوٌ سريع النسيان؛ فستنسى "رقية" ملامح وجه أبيها لكن ألم الفراق سيبقى عالقًا في وجدانها.

شتت الموقف عقل "سامر"، أصبحت مشاعره هي الحاكمة والمتحكمة في عقله.. إحساسه بالحب تجاه "رقية" لم يعد حبًّا فقط، أصبح عشقًا تصاحبه مسئولية ملزمة.. شعور أقوى منه جعله مسؤول عنها، مشاعر جعلتها لا تفارق عقله وروحه، صار يشعر بآلامها كأنه ممسوسٌ بروحها الملائكية.

وقف حسن وسامر أمام جثة الرجل عاجزين، لا يدريان ما العمل.. "رقية" على فراش المرض بالداخل والأب قد فارق الدنيا بقلب مفطور بلا وداع..

أغضب الموقف "سامر" كثيرًا.. تذكر مأساته وكيف لفظه الوطن هو الآخر وجعله يلقي بنفسه في أتون تلك الغربة اللعينة، دفعه كلهذا أن يتكلم بغضب:

- هو دا الوطن اللي بيفضلو يكلمونا عنه - بيسيبنا نموت بالحسرة - عشان بس بنحلم إن نفضل عايشين! هو دا الوطن اللي ساب راجل يبيع كل ذكرياته عشان يعالج بنته! هو دا يا حسن الوطن!! بقينا زي طيور بتهاجر مالهاش ماوئ، وفي الآخر بيسموه وطن بقى كل حلمنا إن إحنا بس نفضل على قيد الحياة، طردوه من رحمة الوطن

عشان يجي هنا ويموت يا حسن، و ساب بنت مريضة كان كل حلمه إنها تعيش يا، الراجل دا هيفضل نقطة سودا في وطن ضاع منه الرحمة يا حسن.

أخفض "حسن" رأسه بانكسار يحركها يمينًا وشمالًا، تعبيرًا عن الأسف، يربت على كتف "سامر" بلطف:

- دا قدره يا "سامر" ..

اتسفز كلام "سامر" عن الشيء الخفي الذي يسميه قدر، عاجله بالرد غاضبًا:

- قدر!! يعني إيه قدر؟ عدم الرحمة بقى قدر، تفكيرنا في الأذى بقى قدر؟ يعني إيه وطن يا حسن؟ قولي يعني إيه؟

صمت "حسن"، ولم يجِب سؤالًا صعبًا في موقف هو الأصعب، ثم تركه و توجَّه إلى الطبيب يطلب وضع الأب في ثلاجة المستشفى لحين إنهاء إجراءات دفنه. أومأ له الطبيب واستدعى الممرضين لنقل الجثمان إلى ثلاجة المستشفى.

حضر ممرضان وحملاه على السرير بلطف ووضعا رقمًا بمعصمه.. تجرد من كل شيء، ليصبح بين لحظة وأخرى مجرد رقم بثلاجة الموتى..خرج "حسن" خلفهم لإنهاء بعض الإجراءات المالية، أما "سامر" فظل واقفًا بالرواق بلا حراك..

تضاعف الغضب المكبوت بداخله.. الغضب المصاحب له من بلده.. وطنه الذي طرده.. والآن انعدمت رغبته و أمله في العودة إليه من جديد.

ما هو العمل؟! كل ما يشغل باله "رقية". اتخذ طريقه إلى غرفتها بذهن مشوش، بعد أن سمح له رجل الأمن بالدخول، دلف إلى الغرفة، أفكاره مبعثير حاول لملمتها و لكن بلا أية جدوى، وقف يراقبها بشرود من خلال زجاج غرفتها.. نائمة كطفلة بريئة.. ما ذنبك يا ملاكي في كل ذلك؟!

- "أنا ليه شُفتك؟ أنا كنت عايش وخلاص، أو كنت فاكر نفسي عايش، أنا ليه بقيت محتاجك فجأة، ولّا انتي اللي محتجاني!! مابقتش عارف أنا إيه لكن كل اللي عارفه إني عايز أكون جنبك."

هكذا حدَّث "سامر" نفسه أثناء مراقبته لرقية.

حينها بدأت تفتح عينيها كزهرة زارها الربيع، نظرت باتجاه "سامر" الذي لم يزح نظره عنها، نظرت له وابتسمت ابتسامة ملائكية أشرقت من خلف غيوم البركان الثائر بداخله. بادلها "سامر" الابتسام. أدخلت ابتسامتها "سامر" في عالم رائع، سمع ضربات قلبه تتسارع بعشقٍ

وخوفٍ وهي مستلقية على فراشها تنظر بعيون تتلألأ بها صورته، دلف إلى عالمها المختلف بلا تفكير.. هي ليست كالبشر؛ فهناك اختلاف في رونق سحرها الفتّان.

بقي واقفًا كالمسحور ثم أفاق قليلًا من تأثير سحرها، تقدم منها أكثر، تحدث إليها بابتسامة مصطنعة قائلًا:

- حمد لله على السلامة... كده خلعتِ قلبنا عليكِ؟

أجابته بنبرة متعبة و بابتسامة رائعة:

- أومال خالك فين؟!

سألها اسمر بنبرة ملؤها الاندهاش:

- خالي مين؟!
- مش أنا بنت خالك.

تذكر "سامر" ما قاله لحسن في المطار عندما حادثه على الهاتف مخبرًا إياه أنها ابنة خاله ليقنعه بضرورة مساعدته له. صمت محاولًا الهروب من عينيها، يحاول لملمة كلمات كان قد حضرها ولكن تبددت فجأة.. قطعت صمته سائلة في قلق:

- بابا فين؟

تلعثم "سامر" ولم يتمالك نفسه، فتساقطت الدموع من عينيه كأمطار غزيرة في شتاء أمشير.. الحقيقة المؤلمة أحيانًا تجعل عقولنا متوقفة عن التفكير، عاجزة عن التصديق.. أثار صمته ودموعه قلقَ رقية، فقالت بنبرة يشوبها القلق:

- يلا بقى نادي على بابا قوله إن بنتك فاقت أهو و بقت تمام، بص هقولك..

و بدأت في محاولة النهوض ببطء من فراشها وهي تتابع قائلة:

- أنا اللي هقوم أضحّكه وهو بيصلي، أصله على طول أفضل أعمل معاه كده.

تعلق نظرها بباب الغرفة متلهفة في انتظار أن يُفتَح الباب و يظهر الأب بابتسامته الرائعة، طال الانتظار ولم يُفتَح الباب ولم يأتِ الأب.. ولن يأتي.

دموع "سامر" لا تتوقف حتى احمرَّ بياض عينيه.. وتلك الملاك يتألم قلبها لشعورها بحدس موجع.. ولأن الأقوياء قد يلقي بهم إلى المرض، صنع عقلها مظاهر عدم الفهم ليخفف من وطأة الألم.. وهنا تكمن قيمة القوة: أن تتظاهر بعدم الفهم لتظل حاملًا لمعاناتك وحدك، ومرض "رقية" منحها قوة لا يُستهان بها.

- طب إيه يعني مش فاهمة بابا فين آه آه آه، خلاص هتلاقيه بياخد حقنة الأنسولين صح.. ماشي يا بابا مش قولتلك ماتخليش حد يديهالك غيري .. بس لما أشوفك.

هزت الكلمة وجدانه وأصابت قلبه بانقباضة فتحدث دون وعي منه:

- بعد الشر عليكِ يا رقية..

صدمة إحساسها بوفاة أبيها أوقفت عقلها وأغلقته، فسألت كالمنوَّمة:

- بعد الشر ليه؟!! ليه بعد الشر ؟!!

مازال واقفًا أمام تلك اللوحة المعلقة على الحائط وصوتها يتردد بأذنه تصرخ بألم. توجه إلى مقعده بعد فترة من الشرود، و بين شفتيه سيجارته يخرج دخانها ويرتفع.. استقر إلى مكتبه وأمسك قلمه بيد بينما يمسح دموع الذكريات بالأخرى.

"كنت أتوهم أنني قوي، ولكن بعد دخولي لعالمك، علمت أنني أضعف من أن أكون حتى ضعيفًا، لم أجد قوة في الدنيا مثل قوة إرادتك، ليس هذا هو الموقف الأصعب الذي مرَّ بنا ولكنه كان صعبًا، و أصبحت أنا من الآن الأب والأخ والصديق والحبيب، أصبحتِ من الآن مسؤوليتي ..؛ أشتاق إليكِ محبوبتي، وما زلت في الانتظار".

ترك قلمه وأرجع رأسه للخلف ونظر للسقف بشرود، حتى سمع صوت مناديًا باسمه:

- "أنا لسه بحبك.."

تجلَّى الصوت من بين ظلام غرفته، صوت يهمس بترنيمة عشق "لسه بحبك"..

ما زال الصوت يتردد.. يشدو بمعزوفته التي تطرب الأرواح وتسعِد الوجدان.. رفرف قلبه في سعادة وأخذ يبحث حوله بجنون ولهفة.. وشغف عن مصدر تلك الهمسات.. يتلفت باحثًا في حركات دائرية في أركان غرفته الصغيرة.. ويحدثه عقله: هي.. بالتأكيد هي.. هذا هو صوتها، كلحن سيمفونية عشق تسحر العقل والقلب.. ظل يتلفَّت وهو ينادي بلهفة وعشق:

- إنتِ فين يا رقية؟ أنا سامعك بس انتِ فين؟!!

هل أصبح مجنونًا حقًّا أم أنه فقط جنون العشق؟ مثلما جُنَّ قيس بليلى وأخذ يهيم في الصحاري شاديًا بكلمات شعرية أصبحت إلهام العاشقين ومرجعهم في العشق.

- إنتِ فين يا حبيبتي؟! انتظارك صعب، أصعب من ألم الفراق..

يردِّد باحثًا عن الصوت بهيستيرية في كل أرجاء غرفته المظلمة، حتى سمع صوتًا آتيًا من خلفه قائلًا:

- بُص وراك يا سامر..

استدار مسرعًا واتسعت عيناه من الدهشة، ها هي ملاكه سطعت كشمس النهار. أسرع نحوها بلهفة وشوف فاردًا ذراعيه ليحتويها:

- وحشتيني أوي يا رقية..

ثم ارتمى ليختفي بين أحضانها، ولكنه لم يجد إلا حائطًا يصدمه بواقعه المنتهي.. تلاشت "رقية" بين دخان سيجارته المعلق بهواء غرفته المكتومة، استدار مسرعًا باحثًا عنها بكل أركان الغرفة لم يجدها، فأسرع ناحية مقعده وجلس واقترب إلى مكتبه والتقط قلمه وكتب على إحدى الورقات:

"كيف أستطيع أن أظل دومًا بين جدران الذكريات، وعلى كل جدار ترتسم ملامح وجهك مبتسمًا، أنظر إليه في كل ليل ونهار.. وروحك تسبح بين أوراق كتاباتي أراكِ دومًا في أحلامي ويقظتي؛ حبيبتي لا أعلم أين الطريق؟! أتتذكرين عندما أخبرتني في تلك الليلة، بأنه سيحين لقاؤنا يومًا ما؟ وأن لقاءنا بعالمك محتوم، اشتقت إليك.. وما زلتُ في الانتظار"

ترك قلمه، وأخرج من علبته سيجارة وأشعلها بتململ، أرجع رأسه للخلف ناظرًا لسقف الغرفة، وأفرغ دخان سيجارته فطاف بالهواء ليصنع صورًا متحركة حول المصباح.. شرد في ذكرياته من جديد..

أخيرًا وبعد وقت ليس بالقصير وبعد أن فاق قليلًا من كل تلك الأحداث التي حاوطته منذ وصوله، قرر "سامر" يذهب إلى أحد الهواتف العمومية ليتصل بأمه التي زاد خوفها وقلقها لتأخره في الاتصال بها.

- والله يا أمي أنا كويس.. بتعيطي ليه دلوقتي بس؟ والله على بال ما وصلت بس وعرفت أكلمك.. خلاص بقى يا أمي ما تزعليش .. وادعيلي والنبي.

وعلى الجانب الآخر والدته تبكي شوقًا وألمًا.. بينما قمر تحاول خطف السماعة من يدها لتسلِّم على أخيها وتطمئن عليه:

- هاتي يا ماما بقى التليفون عايزة أقولّه حاجة.

انتزعت الهاتف من بين يديها بصعوبة، وما إن أمسكت السماعة حتى قالت بلهفة:

- حبيبي وحشتني أوي، إحنا بخير يا "سامر" ناقصنا وجودك جنبنا لأ ماتقلقش ماما بخير والله، وهات تليفون بقى عشان نعرف نكلمك على النت بقى بدل المصاريف دي.. ألو.. ألو.. ألو.. يوووه.. يرضيكِ ماما آهي المكالمة قطعت وما لحقتش أكلمه.

أنهى "سامر" المكالمة، وتحرك باتجاه سيارة سوداء كانت في انتظاره، فتح بابها الخلفي، وجلس بجوار شخص يبدو عليه الثراء الفاحش، في العقد الخامس من عمره، ذو جسد رياضي. يرتدي قبعة إنجليزية ونظارة شمس باهظة الثمن، يمسك بين أصابعه سيجار كوبي، وضعه بين شفتيه الغليظتين وأشار للسائق بالتحرك.

تحدَّث إليه "سامر" قائلًا:

- أنا بجد مش عارف أشكر حضرتك ازاي يا "محسن" بيه، بجد أنا عاجز عن شكرك على وقفتك جنبي وجنب البنت الغلبانة.

فردَّ عليه "محسن" بنبرة واثقة حازمة:

- شكرك ليَّ أنا عايزك تعبر عنه من خلال إبداعك. "عماد" لما بعتلي الرسمة المبدعة، ولما عرضتها على المتخصصين هنا اندهشوا جدًا إنك من مصر، إنت هيكون ليك مكان وسط العظماء هنا يا "سامر" بس أبدع انت وأنا معاك، ومش هقولَّك أنا بعمل كل دا بلا مقابل، أكيد لا طبعًا، أنا هكسب من وراك كتير وعلى أدّ المكسب إنت كمان هتكسب، فاهمني؟

ألمع الحُلم الذي اقترب عينيّ سامر.. تلك الموهبة سترى النور عمن قريب، و أولى الخطوات بدأت بترجُّل "سامر" من سيارة محسن التي توقفت أمام مستشفى "سال بتير"، ذهب "سامر" فرحًا ليخبر "رقية" بآخر الأحداث.

بعد وفاة والدها تكفل "محسن" بعلاجها على نفقته الخاصة، و يتردد عليها بالمستشفى دائمًا؛ فأصبح "سامر" هو العائل والأب المسؤول عنها. وصارت "رقية" حُلمه وحبيبته وهي أيضًا أحبَّته ولكن ليس بجنونه، فحزنها على وفاة والدها أظلم جزءٌ كبير بداخلها.. كما أن حب "سامر" وعشقه الذي ظهر فجأة جعل مشاعرها مترددة، خائفة من إطلاق العنان لأحاسيسها وخائفة من النهاية، فقد يكون حبه ما هو إلا شفقة وليس حبًّا حقيقيًّا فتؤول بها الحكاية وحيدة في غرامها.. معذورة؛ فهي لا تعرف كم صار مجنونًا بها، لا تعرف أن الحب لا يخضع لقوانين أو قواعد أو عقل؛ فهو يخضع لقاعدة واحدة فقط هي: الجنون.

دخل المستشفى سعيدًا منتشيًا، أسرع نحو غرفتها بسعادة وشغف، ولكن من إن وصل بجوار الغرفة ونظر من النافذة حتى نظر على السرير فلم يجدها بالغرفة.. فزعَ خفق قلبه بشدة، شعر بروحه تنسل خارجة من بين الضلوع.. تدفق الدم في عروقه من الخوف، دار يبحث بين غرف الطوارئ لكنه لم يجدها فازداد خوفه وتوتره، تبدلت لمعة الحلم للمعة دموع تلألأت بعينيه بفعل خوفه عليها.. نسي الحلم وتذكر فقط "رقية"؛ فقد أصبحت أقوى من حُلمه الذي لازمه عمرًا..

أسرع إلى موظف الاستقبال ليسأله، حاول أن يوصل له ما يريد ببعض من الكلمات الإنجليزية التي يعرفها، ولكن ظل الموظف يحرك رأسه في عدم فهم، همَّ أن يلتقط قلمًا وورقة ليرسم له مقصده، ولكنه شعر بيدٍ وضعت على كتفه فاستدار ليجده حسن ينظر له بحزن، وقبل أن يقول شيئًا سأله مسرعًا:

- "رقية" فين يا حسن؟!
- رقيه كويسة يا "سامر" .. نقلوها في أوضة عادية لكن...
- لكن إيه؟ مالها "رقية" يا حسن؟!
- ما فيش، لكن...

"كانت راحة لا تفوقها راحة، كنتِ شاغلي وهمي، جف الدم بعروقي حتى كاد أن يتجلط مقضيًا عليّ.. دق الموت على باب روحي ليسلبها من بين يديّ وأنا لا أعلم ما العمل؟! ولكن عاد الخفقان وسرى الدم بالعروق بعد ما أخبرني "حسن" أنك ما زلت هنا في عالمنا هذا، حتى وإن كان هذا العالم لا يليق بك..

حبيبتي ما زلت في الانتظار.. أشتاق إليكِ."

ترك قلمه ونظر إلى صورة مرسومة على جدران ذكرياته لملامحه، ظل ناظرًا لها بشرود، وشريط الذكريات بدأ في الدوران.

- لكن إيه يا "حسن " "رقية" فيها إيه؟!!
- رقيه كويسة وهي في الأوضة، لكن محسن بيه بعد ما وصلك عمل حادثة، عصابة فتحت عليه النار.

ردَّ "سامر" مصدومًا:

- إيه؟! دا لسه كان معايا!
- أيوة أنا جيت هنا أدفع حساب العملية زي ما أمرني وأخلص بعض الإجراءات ولسه حالًا مكتبه متصل بيَّ وقايلّي الخبر.
- طب يلا نروحله حالًا.

أسرع "سامر" وحسن ناحية باب المستشفى الرئيسي؛ للخروج، وحينما هُمَّ بدخول السيارة المتوقفة أمام الباب، توقف "سامر" فجأة وأطال النظر إلى "حسن" بشرود ثم قال:

- طب ممكن تنتظرني دقيقة؟
- دقيقة إيه يا سامر!!

- هي في أوضة كام؟

جاوبه "حسن" بنبرة لائمة:

- محسن بيه راجل وقف جنبك من قبل حتى ما يشوفك على الأقل لازم نبقى جنبه في الظروف دي.

نظر له "سامر" متوسلًا:

- هشوفها من بعيد وهنزل على طول.

وقبل أن يطيل في الحديث أردف "حسن":

- غرفه ١٤ الدور الأول، وبسرعة يا سامر.

أسرع "سامر" كعدَّاء أولمبي صعد السلالم بقفزات طويلة حتى وصل إلى الدور الموجود به غرفتها، دار بعينيه بين أرقام الغرف حتى وجد غرفة "14"، وقف يلتقط أنفاسه الضائعة ويهندم ملابسه، ثم طرق الباب وانتظر حتى سمع صوتها تسمح له بالدخول.

ابتسم ابتسامة خفيفة وأمسك المقبض وفتح الباب بهدوء، أدخل رأسه من فتحة الباب يختلس النظر، كانت واقفة بنافذة غرفتها بترقب وشرود، ولكنها انتبهت لصوت "سامر":

- بدوري على مين في الشارع؟!

ردَّت بابتسامتها الملائكية التي زادت من خفقان قلب "سامر" فعزفت بداخله مقطوعات موسيقية فريدة:

- عليك.. اتأخرت يا "سامر"؟
- ما أقدرش أتأخر عليكِ، تأخيري مش بإيدي، صدقيني محسن بيه عمل حادثة.. ولازم أروحله.

ردت مصدومة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وحصله حاجه؟
- لسه ما أعرفش، حسن مستنيني تحت، قُلت أطلع الأول أشوفك وأروحله.
- طيب روح يا "سامر" وابقى طمني عليه، ولو كنت أقدر آجي معاكم كنت جيت.
- حاضر هطمنك، هجيلك تاني.
- لو لحقت ميعاد الزيارة بقى.
- آجيلك تاني، ولّا انتِ لسه زعلانة؟
- ولو زعلانة هتصالحني؟

- بلوحة من قلم رصاص ليكِ.

أحنت رأسها في خجل ظهر في حمرة وجنتيها، وأخذت تلهو بقدمها كالطفلة تحرك حرف السجادة بينما يحدق بها "سامر" يفكر في أحلامه التي بدت ضئيلة بجوار حلمه الأكبر بأن تبقى معه إلى الأبد.. رفعت "رقية" رأسها ونظرت إليه نظرة المنتظر.. وكأنها في انتظار أن يقول شيئًا مما تخفيه عينه العاشقة، سألته فجأة:

- إنت عايز تقول حاجة؟

ردَّ بتلعثم:

- أنا اا... آه.. خلي بالك على نفسك.

ابتسمت "رقية" بخجل، ثم ردت عليه بهيام:

- ماشي يا "سامر" وأنا هستناك.

تركها وهَمَّ بالخروج عائدًا إلى حسن المنتظر ، وقبل أن يختفي عن نظرها نادت عليه:

- ساااامر متتأخرش.

التفت وردَّ عليها بابتسامة واسعة:

- حاضر.

وقبل أن يخرج من الغرفة قالت له بنبرة مرحة:

- لأ مش أوي كده.. أنا بس عشان عايزه أشوف اللوحة.

نظر إليها مبتسمًا ثم أومأ موافقًا، وأغلق الباب برفق لينطلق عائدًا إلى محسن بابتسامة ملء شدقيه.. طائر هو بكل معاني الحرية، أصبح خفيفًا، رشيقًا.. فقد غير الحب كل موازين حياته.. حتى انفعالاته تغيرت. ما إن وصل للسيارة حتى استقر بالمقعد بجانب حسن. فأشر حسن للسائق بأن يتحرك.

أنهى "حسن" المكالمة التي كانت معه وأخبر "سامر" أن الحادثة التي حدثت لـــ"محسن" لم تصِبه إلا ببعض الكدمات وكسر بيده اليمنى بعد أن قُتِل سائق السيارة بعيار ناري، مما أدى لانحراف السيارة واصطدامها بمبنى خرساني انقلبت على أثره.

غرفة يغمرها النور كأن الشمس تحيطها من كل جانب، في الجزء الأيمن منها وُضع أجهزة طبيبة، وعلى اليسار شاشة كبيرة الحجم، في المنتصف سرير استلقي عليه محسن، يقف بجواره "سامر" وحسن.

- حمد لله على سلامتك محسن بيه.. والله أول ما عرفت جيت جري مع حسن.

قالها "سامر" مبديًا تأثره بما حدث له.

ردَّ عليه محسن بصوت متعب:

- أشكرك يا سامر، الحمد لله إنها جات على أدّ كده.
- حمد لله على سلامتك. قالها حسن بنبرة ملؤها الحب لمحسن.
- الله يسلمك خلصت موضوع رقية؟
- كله تمام معاليك فاضل بس تحديد ميعادها.
- طيب على خير.

ثم وجَّه حديثه إلى "سامر" قائلًا:

- وانت يا سامر.. ابدأ ابدع بقى إحنا هيكون عندنا شغل كتير الفترة اللي جاية.
- أنا هبهرك إن شاء الله، بس مين اللي كان عايز يقتلك دا محسن بيه، دا أنت راجل كويس و واضح إن الناس كلها بتحبك.

ردَّ عليه محسن وهو ناظرٌ أمامه بشرود وكأنه يرى أمامه الجاني ويعرفه تمام المعرفة:

- هنعرف قريب.

ثم أردف "محسن"

- 3 لوحات، أنا عايز 3 لوحات
- بس!!!!

قالها "سامر" متعجبًا.

- ٣ لوحات دول لو ركزت فيهم وطلعوا فعلًا زي الشغل اللي شفته دا.. صدقني ممكن تكسب فيهم 300 ألف يورو.

ردَّ "سامر" مصدومًا:

- كاااام؟!!

قاطعهما "حسن" مازحًا:

- إيه يا "سامر" مخضوض ليه! أيوة زي ما سمعت.
- خلاص أنا معايا ١٥ لوحه اختار منهم اللي يناسب...

قاطعه محسن قائلًا:

- لأ يا "سامر" هنا الشغل مش كده، أنا عندي ٣ لوحات عايزك تعمل زيهم بالضبط
- خلاص أنا موافق.. بس يعني وليه نعمل زيهم ما هو ممكن تبيع اللي عندك على طول طالما بتجيب ربح كبير كده.

صمت محسن صمتًا مشوبًا بتلادل النظرات الغير المريحة بينه وبين حسن.. أما "سامر" فانتبه لأمر قد يقلب كل آماله وأحلامه التي بناها من قبل.

"لم أستطع الاستمرار في التفكير طويلًا.. كان الاختيار صعبًا يا محبوبتي، ولكن حينها، وفي لحظة.. وجدت أن ذاتي بلا قيمة "بدونك" وأصبحتِ أنتِ ذاتي ونَفْسي يا "رقية" ولست نادمًا على اختياري.. حبيبتي كم أشتاق إليكِ.. وما زلت في الانتظار "

ترك قلمه وشبك يديه خلف رأسه ونظر للمصباح الكهربائي بشرود، يتردد صوت حسن بأذنه يذكِّره ببداية المشوار.

- إيه مالك يا "سامر" إنت مصدوم ليه كده؟!

أجابه بتوتر:

- لا أبدًا بس الموضوع دا تزوير، وهتتباع كأنها أصلية مش كده؟

قاطعهما "محسن" بحزم:

- حسن خد "سامر" وفهمه الموضوع، ولازم يعرف إن اللي بيدخل اللعبة مش بيخرج منها بسهولة.

تأكد "سامر" أن الأمر تخطى تزوير أو تقليد لوحات فنية، ولكنه مهما وصل به الخيال لم يكن ليصل نهائيًا إلى أن هذا "المحسن" ليس محسنًا على ما تبدو عليه هيئته من الوهلة الأولى ولكن خلفه إحسانًا من نوع آخر.

رجل مافيا المخدرات الأول في أورُبَّا، مهرِّب محترف، ذكي مبدع في التهريب وتلك اللوحات ما هي إلا مصدر تهريبه الوحيد، فكرة عبقرية صنعها هو بعد سفره إلى إيطاليا يبحث عن عمل. كان معدمًا فقيرًا لا أكل ولا مسكن فالتقطه رجل المافيا الأول بإيطاليا "فيتو جينوفيسي " رجل أعمال ومافيا إيطالي، وأحد أصدقاء ومساعدي الشقي المعروف "لاكي لوتشيانو"، ويُعَد أحد مؤسسي عائلة "جينوفيسي" للجريمة المنظمة، كان يلقَّب بـ "زعيم الزعماء" نظرًا لقوة عائلة "جينوفيسي" الإجرامية حتى الآن، وهو المسئول عن توسيع تجارة المخدرات في المافيا الأمريكية، متشعب في كل أنحاء العالم، وقتل "جينوفيسي" رجال عصابات كثيرين رغبة منه في كسب ود النظام الإيطالي، وحينما التقطه جينوفيسي لرؤيته الثاقبة في معرفة المجرمين العباقرة، أصبح "محسن" من أقرب رجاله إليه، كان دائم الإبداع

في فن تهريب المخدرات، ولكن ما جعل "محسن" من أشهر مهربي المخدرات تلك الفكرة العبقرية.

كان يصنع من المخدرات مادة صنعَها بنفسه، يرسم بها لوحات فنية ويعرضها بمعارض فنية بإيطاليا أولًا أمام أعين الجميع تباع وتشترَى بعلامة متفق عليها بين البائع والمشتري انبهر "جينوفيسي" به أكثر حتى نصَّبه خلفًا له كرئيس شرفي للعائلة، وبعد وفاة "جينوفيسي"، ترك العائلة واستقل بنفسه وصنع أسطورته الخاصة بفرنسا، وأصبح من أخطر مهربي المخدرات بأورُبَّا

وبعد أن قُتل الرسام الخاص بالعصابة من بعض عصابات المافيا انتقامًا من "محسن" بعد ما سيطر على السوق العالمي بفكرته العبقرية، بحث محسن عن رسام آخر، وقتها أُرسِل "سامر" إليه من مندوبه في مصر "عماد".

صدفة أوقعت "سامر" مع أخطر عصابة مافيا في أورُبَّا؛ فقد كانت لوحاته العبقرية بمثابة طوق نجاة لـ"محسن"؛ ليسترد مكانته مرة أخرى، ويجلس على عرش التهريب أطول فترة ممكنة.. إلا أن سامر لم يكن يعلم أن محسن مهرب دولي مخضرم، ذكي، أكبر ما كان يتوقعه بعدما حدَّثه عن تقليد اللوحات أنهم مزورون محترفون، ولكن المصائب بدأت عندما سأله "حسن" قبل ميعاد عملية" "رقية" ":

- إيه يا "سامر" عملت إيه في اللوحات؟

نظر له "سامر" بامتعاض:

- الألوان اللي بتدوهالي مش عارف مالها كده، كأنها مخلوطة بجير ولّا إيه ومخلية اللوحة شكلها مش مظبوط.. بُص يا "حسن" أنا هرسم بألواني أنا...

نظر له حسن بغضب ثم قال بانفعال واضحٍ:

- لا لا لا، ألوانك إيه، بقولّك إيه اللي يتقالك عليه تعمله.

ثم تابع بنبرة مليئة بالخبث:

- عملية "رقية" قربت وعايزينها تطلع بالسلامة.

أفقدته الكلمة أعصابه فألقى بريشة الألوان وانقض على "حسن" وأمسكه من ياقة قميصه دافعًا إياه بقوة حتى ألصقه بالحائط خلفه، ثم قبض على رقبته بكلتا يديه حتى كاد يخنقه وقال:

- إوعى تجيب سيرة "رقية" على لسانك، ورقية هتعمل العملية يعني هتعملها.. برضاكم غصب عنكم هتعملها، واعتبر اللي بقوله دا وعد مني.. وبلغ محسن بك بتاعك إن "رقية" خط أحمر.

أخذ "حسن" يحاول بكل قوته أن يفلت من قبضة "سامر" إلا أن الأخير كان محكمًا قبضته حول عنقه حتى بدأ حسن يختنق واحمرَّ وجهه إلى أن أصبح كأكياس دم منتفخة وبرزت عروق رقبته حتى كادت تنفجر. وبعد لحظات من الصمت نظر إليه "سامر" نظرة يملؤها الغل والغضب ثم أحل قبضته من حول رقبته ليسقط حسن على الأرض يسعل بقوة من أثر الاختناق، وما إن هدأ قليلًا وحاول التقاط أنفاسه حتى حاول النهوض متحدثًا لحسن بصوت متحشرج وبنبرة يملأها خبث إجرامي:

- إيه يا عم "سامر" .. مالوش لازمة كل دا، أنا يعني ماقُلتش حاجة ،أنا بفكرك بس، وهبقى جدع معاك ومش هقول اللي حصل دا لمحسن بيه لأنك واضح إنك ما تعرفش عنه حاجة.

ردَّ بغضبٍ وعدم اهتمام:

- أعرف أو ما أعرفش أنا هعملكم الكام لوحة دول بتَمَن العملية وهسيب البلد كلها وآخد "رقية" وهمشي.
- تمشي فين!! إنت فعلًا ما تعرفش محسن بيه.

التفت "سامر"، وتوجه إلى اللوحة المعلقة على حامل اللوحات وأمسك بريشته، وبدأ يكمل رسمته ودون أن ينظر إلى "حسن" قال:

- لأ ما أعرفوش، ومش عايز أعرفه.

ابتسم حسن بخبثٍ، وتقدم نحوه بهدوء وانحنى على أذنه حتى لمست شفتاه لحمة أذن "سامر":

- بلاش تعرف يا سامر، أوقات كتير معرفة اللي ما ينفعش نعرفه بتبقي تمنها الروح.

ثم تركه وتوجه إلى باب الغرفة التي استأجرها له "حسن" ليكمل عمله بها.. وقبل أن يخرج منها قال:

- سامر، بكرة هآجي وآخد منك اللوحات عشان محسن بيه ما يزعلش.

التفت "سامر" إليه ونظر لحسن بعدم اعتناء، حتى خرج "حسن" من الغرفة.

أسرع "سامر" والتقط الألوان التي قد أعطاها له حسن ليرسم بها، ووضعها بسلة القمامة بغضب، وأخرج ألوانه ومن ثم بدأ العمل على اللوحات بسرعة دون أن يعلم أن تلك الألوان التي قذفها توًا هي مادة مخدرة صنعها "محسن"؛ لذلك تباع تلك اللوحات بمئات آلاف من اليورو في كل معرض.

دخل "سامر" الفخ والخروج منه أصبح صعبًا.. هو الآن لا يفكر إلا في شيء واحد فقط: "رقية". ولذلك أنجز اللوحات في نفس اليوم، وأسرع بمهاتفة "حسن" وأخبره أنه انتهى من اللوحات الثلاث، وبعد ما يقرب من ساعة سمع "سامر" صوت إيلاج مفتاح بالباب، فأسرع وفتح الباب ليجد "حسن" يحاول فتحه بمفتاح خاص به، فرمقه "سامر " باستغراب وسأله:

- إيه ده انت معاك مفتاح الشقة دي؟

ابتسم له "حسن" بخباثة

- إحنا معانا مفاتيح الدنيا كلها، ومفاتيح الجنة كمان.

فنظر له "سامر" بابتسامة ساخرة ثم قال:

- ده اسمه خوف ورعب

ثم تحرك "سامر" متجهًا إلى ركن بالغرفة، وحسن وراءه، كشف "سامر" الغطاء عن لوحاته ليريها لحسن، فلمح "حسن" شيئًا باللوحات جعله يشعر كأن بركانًا من الغضب قد اشتغل بداخله، فقد وجد...

اختياري كان صعبًا يا محبوبتي؛ أختارك أنتِ أم أختار العالم بأكمله، أحلامي تبددت فجأة ولم يبقَ أمامي إلا حلمًا واحدًا هو أنتِ، لم أرَ سواكِ بين المتبقي من أنقاض آمالي، وأصبحت أنتِ الحلم الوحيد والأخير في هذا العالم المريض، الاختيار كان صعبًا، ولكني كنت مضطرًا.

"محبوبتي، أشتاق إليكِ دومًا.. و ما زلت في الانتظار"

ترك قلمه ونهض من مقعده متجهًا إلى حائط الذكريات وتوقف أمام لوحة بالألوان، متداخلة بين الأسود والأبيض، وعلى أركانها وجوه صغيرة لملامح شخص واحد يصرخ، ظل ناظرًا لها بشرود وهو ينفث دخان سيجارته

- إيه اللي انت هببته ده! فين الألوان التانية.

كان ذلك رد فعل محسن بعدما رأى اللوحات التي قام "سامر" برسمها، ردَّ عليه "سامر" بسذاجة:

- رميتها لأني مش عارف أشتغل بيها، هو في إيه؟

دار حسن بعينيه مذعورًا في كل أركان الشقة المكونة من غرفة واحدة، ثم قال مفزوعًا:

- رميتها؟! إنت مش عارف إنت عملت إيه في...

سأله سالم من جديد مدهوشًا:

- عملت إيه في إيه!!؟

صاح "حسن" بقوة:

- رميتهااااا فين؟!!

أجاب وهو يشير إلى صندوق بأحدى أركان الغرفة:

- في السلة اللي هناك دي، بتاعة الزبالة.

أسرع حسن متوجهًا إلى مكان السلة بأعصاب تحترق وغضب يشع من ملامحه، سار "سامر" خلفه مستغربًا بشدة متحدثًا إليه:

- في إيه دي ألوان رديئة جدًا، هبقى أجيبلك غيرهم.

نظر إليه "حسن" بغيظ قائلًا:

- تجيب إيه؟! إنت لو فضِلت عمرك كله تدوَّر على النوع ده مش هتعرف تجيبه، ولو لقيته وبعت كل اللي تملكه وأهلك معاهم عمرك ما هتجيبه برضو.
- ليه يعني؟ مخدرات؟

أجاب حسن بانفعال وبلا تردد:

- آه مخدرات، إنت مش فاهم بجد انت عملت إيه، صدمه ردَّ حسن فصمت لوهلة ثم سأله باندهاش:
- ليه هو انتم بتخلطو المخدرات في الألوان !!

لم يجبه "حسن" وتركه بتعبيراته البلهاء وانحنى يفرغ سلة القمامة محاولًا نقاذ من ما تبقى من الألوان التي سكبها "سامر" بكل غباء.

طال انتظار "سامر" لإجابة، ومحاولات حسن الغريبة في إنقاذ الألوان جعلته يخرج عن انتظاره وصبره ليمسك بذراع حسن بعنف جاذبًا إياه ليستقيم:

- رُد عليَّ إنتو بتخلطوا المخدرات بالألوان إزاي؟!

أبعد "حسن" يد "سامر" بهدوء، وبابتسامة مستفزة هادئة قال:

- دي مش ألوان زي ما انت فاكر يا سامر، دي جيل جديد من المخدرات، تقنية فريدة اخترعها محسن بيه، سعرها بيوصل لملايين، ولو في براءة اختراع للمخدرات كان أخد "محسن" بيه فيها نوبل، دي مادة كيمائية ملونة بيتخلط فيها كل أنواع المخدرات، وبيتم الرسم بيها على لوحات ورق عادية، وبعدها بيتم عرضها في المعرض قدام كل الناس وبيكون في كل لوحة علامة مميزة بيعرف بيها العميل إن دي هي اللوحة المخصوصة ليه، وبعد ما بيشتريها بطريقة متفق عليها، بيتم تنشيفها تحت درجة حرارة معينة، وبتختفي كل الألوان وتفضل المخدرات كأنها ما حصلش فيها حاجة، مش بقولك اختراع.

اتسعت حدقتا "سامر" دهشة وغضبًا بعدما سمع شرح حسن لاختراع "محسن" الفريد.. شعر أن آماله وأحلامه تتهدم.. وكأن سماء أحلامه أطبقت على أرض الواقع فهدَّت منازل أمانيه في لحظة. لم يتوقع أن يكون " محسن " تاجر مخدرات.

- هو محسن ده.. تاجر مخدرات؟

سأل "سامر" وهو ما زال تحت تأثير الصدمة، فأجابه حسن بابتسامة ساخرة:

- تاجر مخدرات هههه... إنتوا المصريين غلابة أوي ومليانين سذاجة. إنت فعلًا غلبان يا سامر.
- إحنا المصريين؟! أومال انت إيه مش زينا!

أجابه باستنكار بالغ:

- لأ يا "سامر" مش زيكم، هتعرف بعدين أنا إيه، لكن الأهم إن محسن بيه زعيم أكبر مافيا في أورُبَّا، إنت بجد انتهيت، الألوان دي لو ما رجعتش صدقني اعتبر نفسك إنت وأهلك، ورقية انتهيتم.

بدا الرعب جليًّا على ملامح سامر؛ فقد كان أقصى تخيلاته أن يكون محسن مزوِّرا أو سارق أفكار أو على الأكثر يكون مهربًا للآثار، لكن لم يتوقع نهائيًّا أن يكون محسن زعيم مافيا دولي. صمت "سامر" محاولًا ترتيب أفكاره، ولكن ماذا تفيد الأفكار الآن! لا مفر من الاختيار.

ومن بين ذهوله وأفكاره أتاه صوت حسن يقول بنبرة تهديد قاسية وقد تبدلت ملامحه إلى ملامح شيطان رجيم:

- علبة الألوان دي لازم ترجع، صدقني انت مش عارف إيه اللي ممكن يحصل، أنا كل اللي أقدر أعمله إني أصبر 6 ساعات بس عليك، صدقني لو محسن بيه عرف هيكون رده غير متوقع وعليك إنك تختار، ٦ساعات بس يا سامر.

ثم تركه في حيرته وذهوله وخوفه واتجه إلى باب الغرفة مغادرًا فتحه وخرج مغلقًا إياه بعنفٍ.

وكأنه بإغلاقه بالباب فتح مقبرة لأحلام "سامر" الذي ما إن غادر حسن حتى جثا على ركبتيه منهارًا يغمض عينيه على دموع أوشكت على السقوط.. الموقف لم يعد مقتصرًا على مجرد التفكير في طموح سجنت بقبور الأحلام الضائعة التي انتهت إلى الأبد.. أحلام الشهرة والإبداع.. أحلامه بأن تخطف لوحاته الأنظار وتدهش العقول.. فالآن ستصبح مميتة.. سالبة للعقول.

أصبح الاختيار بالفعل صعبًا جدًّا؛ فلم يعد الاختيار بينه وبين مبادئه أو بينه وبين رقية، وإنما صار اختيارًا بين موت وقتل.. انهار كل شيء بفعل شيطاني، لم يتبقَّ إلا أشلاء تسيل دما على أنقاض أحلامه.. تلك هي الحرب حقًّا.. حرب نفسية، تعجيزية.. كم هي مؤلمة تلك الحياة، تعطينا آمالًا كبيرة وفجأة تسلب منا حتى حرية الاختيار، الاختيار!! أصبح الاختيار بين قتل شباب ونساء ورجال وسلب عقول، وبين حياته وعشقه وآخر حلم وأمل له بتلك الحياة، ميزان صعب، "رقية" في كفة والعالم في الكفة الأخرى.. ما أصعب الاختبار .

اختبار هذا أم اختيار؟!، أصبح عقله مشلولًا لا تفكير ولا قرارات. بقي "سامر" صامتًا ولكن بداخله حرب أقوى من كل حروب العالم.. أيختار الهلاك أم الضياع؟! ما العمل الآن! القلب في مأزق والعقل في حيرة وصار لزامًا عليه أن يختار بين أمرين كلاهما صعب.

ابتعد عن حائط ذكرياته شاردًا، يشعر بالضياع.. ينفث دخان تلك السيجارة التي لم تعد تفارق يده ثم جلس على مقعده في هدوء وأمسك قلمه وكتب:

"كان صعبًا أن أتركك وكان الأصعب منه أن أكون قاتلًا مأجورًا، ولذلك اخترت المستحيل، ولكني لم أكن أعلم أن المستحيل سيصبح قاسيًا علينا.. محبوبتي، كنتِ الأمل والحلم المتبقي في عالمي المظلم القاسي، كنتِ شعاع نور أضاء ما تبقى منّي.. إلى أجمل زهرة في بستان حياتي..

"أحبك"

ست ساعات هي الفارقة في حياة الكثيرين، والأهم حياة "رقية"، العشق؛ لذلك بعد أن أفاق "سامر" من لحظات انهياره وشروده أسرع إلى سلة القمامة فزعًا من تهديد حسن المخيف. حاول أن ينقذ أكبر قدر من الألوان بعد أن امتص بعضها قصاصات ورقية كانت

ملقاة بالسلة، وقليل منها كانت سائلة في آخر الصندوق فأخذ المتبقي ثم و ضعه بعلبة بلاستيكية صغيرة وأحكم إغلاقها، ثم التقط تلك القصاصات وقد خطرت له فكرة مبدعة ستخرجه من قلب المأزق -مؤقتًا على الأقل-، ارتدى ملابسه وخرج من الشقة مسرعًا يبحث عن أقرب صيدلية له.

وبعد أن انقطعت أنفاسه من البحث وجد واحدة أخيرًا، وقف أمامه يحاول التقاط أنفاسه محاولًا أن يتذكر أي كلمات فرنسية تساعده في شرح ما يريد. وبعد تفكير دلف إلى الصيدلية وتوقف لحظات يتفحص الرفوف. وبعد وقت كان الصيدلي قد فقد صبره، فرمقه بنظرة مستنكرة وسأله بلكنته الفرنسية:

- Qu'aimez-vous؟

ماذا تريد تلك؟! هي الجملة الثانية التي أدركها "سامر" طيلة الأيام القليلة السابقة في باريس، فأشار "سامر" إلى علبة على أحد الرفوف، فتوجه الصيدلي حيث يشير "سامر" كان هناك أنواع كثير على نفس الرف وبعد حيرة تفهم أخيرًا ماذا يريد "سامر" بالتحديد، وبضيق غير مبرَّر ناوله إياها باشمئزاز بالغ:

لم يلقِ سامر بالًا لطريقة الصيدلي، أخرج من حقيبته الصغيرة ثمن ما طلبه وأسرع بالخروج بدون تركيز، فهناك ما هو أهم ليفكر به.. حتى وإن كانت طريقة الصيدلي توضِّح أنه اضطهاد أورُبِّي لملامحه العربية الواضحة أو لجهله باللغة الفرنسية، أيًا كان السبب.. فقد اتخذ قراره، بأن يخرج هو ومعه "رقية" وبلا أي ضرر لمخلوق أيًّا كان.. فالطريق المستحيل لا يُختار، بل يُفرَض علينا فرضًا.. قدر وضعه في هذا العالم القاسي المنهار إنسانيًا.. كراهية وعنف وأنانية.. حروب دنيئة لمرضى نفسيين.. ظلم وقهر واضطهاد للون والعرق والدين.. عالم مجنون بالحروب، وسامر تائهٌ وسط كل تلك الوجوه، وسط باريس يبحث عن محل لبيع ألوان الرسم المائية، إلى أن لفت نظره شاب ذو ملامح عربية كان جالسًا بداخل أحد المحلات، دلف إلى المحل دون تفكير، أملًا في أن يكون هو المساعد في تلك المحنة، توجه إلى الشاب وسأله بابتسامة هادئة:

- إنت عربي صح؟

وقف الشاب وبادله الابتسام ثم أجابه بترحيب:

- ومصري كمان..

زفر "سامر" نفَس الارتياح، ومسح عرق جبينه ثم قال:

- الحمد لله.. أنا في أزمة يا صديقي.

سأله الرجل بشهامة:

- محتاج فلوس؟

رد "سامر" شاكرًا له على شهامته ثم قال:

- لأ . بس محتاج نوع من الألوان المائية ممكن أخلط بيها بودرة ثلج.

نظر له بتعجب ثم قال:

- هو أنا ممكن أجيبلك حاجة يعني تنفع، لكن مش أكيدة ١٠٠٪، بس ليه الطلب الغريب ده؟

لم يهتم لسؤاله، وسأله:

- كام في المية؟؟

ممكن تحتفظ بامتصاص البودر أكتر من ٢٤ ساعة.

- لا لا، كده تبقى ٢٠٠٪ أنا عاوز أشتريها.

توجه الشاب إلى رف خلفه والتقط علبة الألوان، بينما "سامر" كان يقف ملهوفًا ينظر في ساعة يده، عقرب الثواني يسرع وكأنه صاروخ عابر للقارات.. أو هكذا هُيأ له.. كان الوقت دائمًا هو العدو الوحيد، ولكن الآن لم يعد عدوًا فقط بل أصبح كلمة السر للموت. التقط "سامر" منه علبة الألوان، وقبل أن يخرج من المحل، وضع يده داخل حقيبته ليدفع ثمنها، ولكنه أدرك أن كل ما كان بحوزته قد نسيه في تلك الصيدلية، فنظر إلى الشاب قائلًا:

- سامحني، أنا مش نصاب والله، لكن واضح إني نسيت آخر 100 يورو اللي معايا في الصيدلية اللي جبت منها علبة بودرة الثلج.

فنظر له الشاب برأفة:

- خلاص ولا يهمك، لكن لما تبيع اللوحة اللي بتعملها ما تنساش تكتب اسم المحل تحت اللوحة.

فابتسم له "سامر" وسأله بإعجاب:

- هو المحل ده ملكك؟
- مجهود 10 سنين في الغربة.

ربت "سامر" على كتف الشاب تعبيرًا منه عن الشكر.. ثم خرج مسرعًا عائدًا إلى مسكنه الذي لا يعرف أي طريق يسلكه للوصول إليه، ولا يعرف اسم المنطقة الموجود بها، ولكنه

يعلم اسم البناية التي استأجر بها "حسن" غرفة له.. أصبح في مأزق جديد، يصارع الزمن؛ لأنه أولًا لا يعرف نطق الاسم، ولكنه يعلمه بالشبه، وثانيًا: وفي تلك الأحيان، نظر إلى ساعته فوجد أن الباقي من الزمن أربع ساعات فقط.. قصير الزمن عند الأمل، وطويل في الانتظار.

ظل يجوب شاردًا بين الطرقات يبحث عن ملامح العودة، تتشابه عليه الطرقات، يخرج من مكان لمكان ومن بناية لبناية

عودته كما كان ذاهبًا باحثًا عما يريد يتشابه عليه الطرقات ظل يخرج من مكان لمكان من بناية إلى بناية حتى لمح سيارة "حسن" متوقفة أسفل بناية، نظر لأعلى فوجد لوحة مضيئة مكتوب عليها نفس حروف بنايته، حينها وقف ينظر في ساعته وشرد للحظات..

الوقت مجنونٌ، لا تعلم له بداية أو نهاية، أحيانًا يصبح واسعًا فضفاضًا، وأحيانًا يصبح ضيقًا كقبور الموتى.

خرج من شروده ليتوجه مسرعًا حذرًا إلى أن وصل إلى باب غرفته.. وقف يسترق السمع من خلف الباب؛ فقد تذكر قول حسن بأنهم يملكون مفاتيح الدنيا والآخرة.

أمسك بمقبض الباب وأولج مفتاحه وأداره ثم دفعه بقوة، وجد أمامه "محسن" على كرسي متحرك وبجانبه "حسن" ينظران له مبتسمين بخبث وسخرية. وقف "سامر" بهدوء، غير عابئ، وابتسم لهما قائلًا:

- فعلًا مفاتيح الدنيا كلها معاكم

توجه له "حسن" بهدوء، وهمس في أذنه:

- إوعي تكون فاكر إن إحنا ممكن حد يضحك علينا، إحنا أقوى من أقوى جهاز مخابرات في العالم، كل الناس هنا بتنفِّذ أوامرنا.

بدأ القلق ينهش ملامح وجه "سامر"، وانهار آخر أمل له في النجاة من بين أيديهم، وأيقن أنه قد أُكتِشفَ أمره، وأنه بالتأكيد كان مراقبًا طوال الساعات الماضية. بقي "سامر" صامتًا يفكر ثم فجأة تحرك مسرعًا باتجاه الباب، فز حسن من مكانه يحاول اللحاق به ولكن ثقل وزنه أعطى فرصة لسامر في النجاة. خرج سامر وترك المفتاح بالباب من الخارج ليعطلهما.. يعلم أنهم سيتمكنون من الخروج ولكن بعض الدقائق ستفيده بالتأكيد.

أسرع إلى خارج المبنى وأوقف سيارة أجرة، ركبها مسرعًا وقال للسائق:

- Pitié-Salpêtrière Hospital .

هذه هي الجملة الأولى التي تعلَّمها "سامر" - مشفى "سول باتير" - الذي ترقد به "رقية". انطلقت سيارة الأجرة. اختفت السيارة من الشارع واتجهت يمينًا، بينما حسن ما زال بالطريق أمام باب البناية يبحث عنه يمينًا ويسارًا، أخرج هاتفه وقام بالاتصال "بمحسن":

- محسن بيه "سامر" اختفى.

كان محسن ما زال بالغرفة يستمع إلى عبر هاتفه "حسن" بغضب شديد:

- يعني إيه اختفى، روح على المستشفى هتلاقيه هناك.
- وانت يا محسن بيه، مين هيوديك الاجتماع؟

لم يجبه وأغلق الهاتف بوجهه، ثم هاتف مكتبه لإرسال سيارة أخرى.

ركب حسن سيارته ثم انطلق بسرعة إلى المستشفى ذاتها الموجود بداخلها "رقية"، أما "سامر" كان مازال في سيارة الأجرة ينظر خلفه بقلق ورعب، أخذ يشير للسائق بأن يزيد من السرعة، وعندما توقفت السيارة أمام باب المستشفى خرج من السيارة مسرعًا وأشار للسائق أن ينتظره لحظات، ودلف داخل المستشفى مسرعًا صعد السلالم بقفزات سريعة حتى وصل إلى باب غرفة "رقية"، فتحها بسرعة بلا استئذان، نظرت له "رقية" التي كانت مستلقية على على سريرها بذعرٍ وقلقٍ:

- في إيه يا "سامر" مالك؟

سألها "سامر" لاهثًا من الخوف ومن الجري معًا:

- رقية، إنتِ واثقة فيَّ؟؟

جاوبته "رقية" بحيرة:

- طب في إيه فهمني؟؟
- هقولك كل حاجة بعدين، لكن أنا عايزك تثقي فيَّ.
- أنا واثقة فيك يا "سامر" بس أنا عايزة أفهم.

ما فيش وقت، إحنا لازم نمشي من هنا، فيه خطر عليكِ وعلى أمي وأختي كمان، أرجوكِ لازم نمشي دلوقتي.

قال جملته الأخيرة وهو يخرج متعلقاتها من خزينة الملابس وسط ذهول "رقية" ودهشتها. فتركت فراشها واتجهت نحوه، وبنظرات حب، أمسكت بذراعه ونظرت في عينيه:

- "سامر" أنا بجد بحبك، وهبقى معاك تحت أي ظرف حتى لو مش هعمل العملية أنا هبقى مبسوطة برضو، بس قولي فيه إيه.

نظر لها نظرات ملؤها الحب والشفقة، مشوبة بخوف وذعر، ثم قال من بين كل مشاعره تلك:

- انتي هتعملي العملية، وعد مني يا رقية، أنا عمري ما حبيت في حياتي أدّك ولا اتمنيت حد زي ما اتمنيتك انتِ، في لحظة بقيتِ ليَّ حياة جديدة عالم ملامحه كلها ملامحك، مش شايف غيرك ولا حتى عايز أشوف غيرك، حتة في روحي ناقصة وانتِ كملتيها، لكن كان الاختيار صعب يا "رقية" أرجوكِ هقولك كل حاجة بس لازم نمشي من هنا حالًا.

أجابته "رقية" بثقة:

- وأنا واثقة فيك.

أسرعت والتقطت ملابسها في سرعة، ودلفت إلى حمَّام الغرفة لتبدلها، استمر "سامر" في جمع باقي متعلقاتها بالحقيبة،ما إن انتهت من ارتداء ملابسها كان قد لملم كل شيء، أسرعا متجهين للباب، ولكن بمجرد أن فتح "سامر" باب الغرفة وجد حسن أمامه مبتسمًا.

ترك حائط ذكرياته واتجه إلى مكتبه بملل، جلس على مقعده وأمسك بقلمه وكتب:

"كانت المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة "أحبك، كلمة ردت إليَّ روحي من جديد، رائعة كما أنتِ دومًا، محبوبتي الآن بدأ مشوارنا، وكنتِ أنتِ أملي على هذا الطريق، أشتاق إليكِ.. وما زلت في الانتظار"

وضع قلمه بهدوء على مكتبه ووقف من مقعده، ثم توجه إلى سريره بإرهاق وما زال يرتدي تلك القبعة التي تخفي ملامح وجهه، استلقى على سريره ونظر إلى سقف الغرفة شاردًا بعينٍ مترددة بين النوم واليقظة، وكأنه يخاف من شيء ما.. كأن هناك في عالم الأحلام ما يذعره ويخيف. ودائما الغلبة للنوم، وما إن استغرق في النوم حتى انتفض مذعورًا والعرق يبلل ملابسه البيضاء، فأسرع إلى مكتبه، والتقط قلمه وبدأ يكتب وهو يمسح عرق وجهه:

"حبيبتي، ما زال الحلم يراودني، ما زلت أرى نفسي بمنتصف الطريق ممددًا على الأرض ومن حولي أناس يحاولون مساعدتي بينما تسيل الدماء من جانبي، وأراكِ أنتِ بشرفة واقفة بصمت تدمعين، أصبحت أكره النوم، و "بدونك" أصبحت كارهًا للحياة، سئمت الدنيا وزادت أيام انتظاري وزاد معها عشقي وأشواقي، ملهوف أنا على رؤياكِ، عاشق أنا وما زالت ألوان حبك ترسم على جدران روحي ملامح عينيك وهي تبتسم لي. مر الكثير بلا لقاء وأصبحت أنا مريضًا بجنون لا شفاء منه إلا لقائك، أتذكرين يوم وعدتني أننا سنلتقي يومًا؟ وقريبًا؟ وها أنا الآن.. مرت سنوات وكأنها قرون من الوحدة القاتلة، وحيد أنا في عالمي المريض، أذكر جيدًا نظرات خوفك التي رأيتها بين عينيك عند فتح باب غرفتك

بالمستشفى، لم أنسَها حتى هذه اللحظة، كم أنا محظوظ بحبك.. أشتاق إليكِ.. وأنا كما أنا؛ مازلت في الانتظار."

وضع قلمه ثم التقط علبة سجائره وجدها فارغة، فألقاها بغضبٍ ثم نزل على الأرض بشغف ولهفة يبحث عن بقايا سجائره المطفأة، يبحث وسط ظلام غرفته، إلى أن وجد عُقب سيجارة فالتقطه مسرعًا وتوجه ناحية أحد الأركان وجلس القرفصاء ببطء وبهدوء.. كمجذوب مشرد في شوارع وطرقات الذكريات.. أشعل بقايا السيجارة بيد مرتعشة، ثم وضعها بين شفتيه وأخذ نفسًا عميقًا كأنه عابر ظمآن في صحراء بلا ماء وقد وجد بئرًا بعد عناء بحث طويل. وبعد أن انتفخت رئتاه بدخانها، أفرغه في هواء الغرفة المكتومة، وظل يراقب دخانها وهو يغطي سماء غرفته كسحاب أبيض.

يصنع الدخان ملامح جسد رجل ثمين يشبه "حسن " وهو يقف أمام باب غرفة المستشفى عندما فتحه "سامر"، مبتسمًا بخبث شيطاني وقطرات عرقه تتساقط من على جبهته، تبسمت "رقية" بسذاجة لا تعلم أن "حسن" هو مساعد الشيطان ذاته:

- كويس إنك جيت يا أستاذ "حسن"، "سامر" كان عايزنا نمشي ما أعرفش ليه.

وقف "سامر" يترقب في صمت و "حسن" مبتسم يرمقه بنظرات لوامة مصطنعة:

- ليه تمشو هو في حد زعلك يا سامر؟؟

قالها وهو يدخل الغرفة بخطوات بطيئة، ثم أغلق الباب خلفه و "سامر" يجذب "رقية" لتستتر خلفه جاعلًا دولاب الملابس خلف ظهورهما خوفًا من أي حركة غادرة، وفي حينه ظل "حسن" يسير في الغرفة حتى توقف عند نافذتها وهو يتحدث بنبرة تعالٍ واثقة متكبرة:

إحنا وقفنا جنبك يا "سامر" ما يبقاش رد الجميل بالطريقة دي، محسن بيه راجل طيب وعمره ما بيأذي حد، بس لو انت بقى عايز تأذي نفسك هيكون موضوع تاني.

رقية تستمع لكلمات "حسن" باستغراب وخوف من خلف "سامر" من طريقة "حسن" غير المعتادة لها:

- هو في إيه يا سامر؟؟

جاوبها "سامر" وهو ينظر لحسن بترقب:

- عايزنّي أرسم لوحات بالألوان المخدِّرة.

صُدمت "رقية" من الجملة وبتلقائيتها المبهرة:

- يا نهار أسود، مخدرات!

ثم صمتت لوهلة وأردفت:

- مش فاهمة يعني إيه ألوان مخدرة؟؟

قطع حسن استرسالهما بحزم:

- لا إحنا هنفهمك كل حاجة، بس الأول، هنطلع كلنا في هدوء، ولما نخرج من المستشفى نبقى نتكلم.

تحسس "سامر" خطواته ليقترب من باب الغرفة، ويستر بجسده "رقية" من غدر غير محسوب من "حسن"، الذي كان يخطو بخطوات هادئة متقدمًا باتجاههما وهو يقول:

- إيه يا "سامر" هتروح فين المرة دي، العالم كله يا "سامر" أصغر من إنك تعرف تهرب فيه، محسن بيه مش زي ما انت فاكر لو انت ميت وفي قبرك هيطلعك ويجيبك، مالكش مكان تروحه اعقل وخلص المطلوب وإحنا هنبقى عند وعدنا معاك و"رُقية" هتعمل العملية، وأهلك هناك هيرجعوا البيت تاني.

سمعت "رقية" الجملة بذعرٍ كبيرٍ وضاق بها العالم في لحظة شريرة، ولأن الصعب أصبح مستحيلًا؛ فالخروج من عالمهم يعد خروج من الدنيا، أذرعهم تملأ العالم، متحكمة في كل البلدان والقارات.. صمت "سامر" وهو ينظر إلى "حسن" بغيظٍ شديدٍ.. أي فعل غير مدروس أو محسوب سيكون ثمنه أرواحهما، أرواحهما التي يتلاعب بها مرضى النرجسية والإجرام، أصحاب العالم ومالكينه وهم من يضعون النظام والتاريخ، والنظام الأقوى هو من ينتصر.. غابة، وهو مفقود داخلها، يشبه نملة تداس بأرجل بلا رحمة أو هوادة و"رُقية" المسكينة المريضة خلفه، انهار حلمها في البقاء، وحيدة لا تملك حتى قيمة فطور الصباح، أملها الوحيد كان أموال "محسن" الدنيئة التي لا تعلم عنها شيئًا قبل لحظات، ولكن الآن آخر أمل لها في الحياة هو أن تبقى بجانبه أكبر قدر من الوقت المتبقي في عمرها، ولكن عندما أسرع "سامر" بتركها وفاجأ "حسن" بلكمة قوية أفقدت "حسن" اتزانه؛ سقط على الأرض بجسده السمين، انقضَّ عليه "سامر"، ظل ينهال عليه باللكمات القوية حتى فقد وعيه تمامًا، فانتابها ذعر قطع أنفاسها وهي تقف بجانب باب الغرفة المغلق، في حالة ذهول وصدمة، وبعد أن أنهى "سامر" على "حسن" وتأكد أنه فقد الوعي تمامًا، وضع يده في جيبه وأخذ هاتفه المحمول والحافظة الخاصة به، أسرع نحو باب الغرفة، مسك يد "رقية" وجذبها مسرعًا للخروج من الغرفة، فوجد رجال الأمن قادمين ناحية الغرفة، فالتفت إلى الخلف واتخذ طريق معاكسًا، وعند أول باب الطوارئ ضربه بقوة وأخذ يسرع من على السُلم حتى وصل إلى باب خلفي للمستشفى، وخرج مهرولًا ثم استوقف سيارة أجرة، وركبا مسرعين وهو يقول للسائق:

- Egypton empassy.

نظرت له "رقية" وهي تستوي على مقعدها:

- هتعمل إيه يا سامر؟؟
- مش عارف أنا هروح السفارة وأحكلهم وهُمَّا يتصرفوا.
- أنا خايفة يا سامر.
- وأنا كمان بس عقبال ما يفوق هنكون إحنا لحقنا أي حد في السفارة أنا بس عايز أطمن على أمي وقمر.
- هو مش قالنا إنه قابض عليهم في مصر.
- لأ ده كان بيخوّفنا بس، لأن أمي، في عمرة دلوقتي، آخر مكالمة بينا كانت في المطار وقمر معاها بتوصلها، وقمر بعدها سافرت عند خالي في الصعيد وصعب أي حد يدخل القرية بسهولة.

نظرت "رقية" إلى "سامر" بإعجاب، عقل سريع التفكير مرتَّب إلى هذا الحد، ولكن مهما كان العقل مرتبًا إلا أنه أحيانًا شدة التركيز تفقدنا التركيز أيضًا، وهذا ما جعل تركيز "سامر" في الهروب أن ينسى ما قالته "رقية" وهما بالسيارة:

- الشنط في المستشفى يا سامر.
- مش مشكلة هنبقى نشتري.
- دي فيها جواز السفر بتاعي.

نظر لها "سامر" وهو يخبط بيديه على المقعد الأمامي في السيارة بقوة، ثم أردف بعد لحظات شرود وهو يحك ذقنه بأصبعه قائلًا:

- ما تقلقيش، نروح السفارة وأنا هتصرف.
- أنا مش قلقانة وأنا معاك يا سامر.

نظرات طويلة من "سامر" تتحدث، وهي على استحياء تقرب يدها بجانب يده حتى تلامسا، فأمسك "سامر" يدها حتى تعانقت أصابعهما بشوق ولهفة، احتياج الأمان والاطمئنان..

- أنا معاكِ لآخر يوم في عمري.
- وأنا كفاية عليَّ إني قابلتك، أنا أول مرة أحس الإحساس ده، "سامر" أنا بجد بحبك.
- وانتِ غيرتِ حياتي كلها، النور اللي جوايا من غيرك ضلمة، بحبك حتى الموت ومهما كان اللي جاي، هتعملي العملية وهتعيشي.

نظرات "رقية" كانت نورًا يشع ضياءً وسط ظلام أزماته المتتالية، فجأة تحول التوتر إلى هدوء وراحة بسماع صوتها، حبهما، حب خارج الزمان والمكان، لا مراحل حب، ولا جنون ولا صفقة ولا حقيقة، حب مجرد، نقي، نوع فريد من الحب.

بقيا صامتين، مكتفيين فقط بنظرات الأعين، حتى توقفت السيارة الأجرة أمام السفارة المصرية وترجلا من السيارة مسرعين متجهين ناحية البوابة الرئيسية للسفارة، فاستوقفهما حارس السفارة وظلا يقصان عليه ما مرَّ بهما، فتركهما ودلف، وبعد لحظات انتظار، خرج ومعه شاب مصري يبدو عليه الاحترام والرقي، وسيم وترتسم على شفتيه ابتسامة ترحيب إلى "رقية" دون أن يعير اهتمام إلى "سامر" ثم مدَّ يده باتجاه "رقية" للسلام فمدَّ "سامر" يده قاطعًا طريقه، وأدخلها بينهما عنوة وهو مبتسم بغيرة واضحة:

- أهلًا بيك، أنا "سامر" مصري وعندنا مشكلة، محتاجين نقابل السفير أو أي حد.

نظر له الشاب بترحاب:

- طبعًا، اتفضلوا هو بس عنده اجتماع مع بعض رجال الأعمال المصريين يخلص ويقابلكم، سعادة السفير هنا مع كل المصرين.

أدخلهما الشاب إلى قاعة الانتظار، جلسا وأمامهما على مكتب الاستقبال الشاب الوسيم مبتسمًا وهو يختلس النظر إلى "رقية" في كل لحظة والصمت يغلف الأجواء حتى نفذ من "سامر" الصبر بعد رؤية محاولات الشاب لشد انتباه "رقية" بشتى الطرق فمدَّ "سامر" يده لها وأمسك يدها بعنف وهو ينظر إلى الشاب مبتسمًا:

- وحشتيني أوي يا رقية.
- ابتسمت "رقية" ونظرت إلى "سامر" نظرات مطمئنة ...
- مالك يا سامر؟؟
- لأ، ما فيش عادي.

حينها فتح باب جانبي وخرج منها رجال يبدو عليهم الرقي فوقف الشاب باحترام وتوجه ناحيتهما مسرعًا:

- شرفتونا يا افندم.

وقف "سامر" و "رقية" يترقبان خروجهم واحدًا تلو الآخر، وحين رؤية أطراف مقعد متحرك، يدفعه من الخلف السفير ذاته، انقضى آخر أمل لهما في الهروب.

الفصل الثالث

عالم مريض...

الإسكندرية

منطقة المعمورة

تقف سيارة صفراء اللون، أمام بوابة عملاقة حديدية مطلية بلون أخضر داكن، وبداخلها رجل حاد الملامح يرتدي نظارة شمسية، ويبدو في العقد الرابع من العمر، قرع الرجل نفير السيارة بصورة متواصلة، فخرج رجل يرتدي الزي الأزرق يهرول متجهًا يفتح له الباب الموصد بقفل من الداخل، وبعد فتحه على مصراعيه، دلف بسيارته بهدوء ثم أوقف السيارة وأشار للرجل بيده فأسرع نحوه مهرولًا، وحين وصوله إلى باب السيارة انحنى ثم اقترب من نافذة الباب الأمامي قائلًا:

- أؤمرني دكتور أشرف!!
- هو كام مرة قُلت، إن لازم يكون في حد واقف على البوابة هنا؟

نظر له الرجل باحترام:

- آسف يا دكتور، لكن كنا لسه بنغير الوردية و...

قاطعه " الطبيب بغضب:

- ده عذر أقبح من ذنب، أرجوكم يا جماعة لازم يكون في حد على البوابة، المرضى اللي هنا من أخطر ما يكون، وفيهم أصحاب عقول عبقرية لدرجة الجنون، دي مسئولية أرجوكم.

أومأ برأسه بالموافقة وهو يرفع يده للتحية، في حين كان الطبيب يتحرك بسيارته، انحرف يمينًا متجهًا إلى المرآب الخاص بسيارات الأطباء، أوقفها في مكانه الخاص له تحت مظلة حديدية مثبتة لوحة بلاستيكية عليها رقمان بارزان "18"، وبعد أن استقرت سيارته واطمئن على أبوابها وأحكم إغلاقها جيدًا، أخذ طريقه إلى مبنى مواجهٍ للمرآب، ذي وِجهة زجاجية تعلوها يافطة بحروف بارزة "مستشفى دكتور أشرف للأمراض النفسية والعصبية"، دلف وهو يخلع نظارته الشمسية، فظهرت من أسفلها عيناه الزرقاوان وأنفه المحدبة، وبابتسامة من شفتيه الصغيرتين لسيدة تتقدم نحوه ترتدي معطفًا أبيض اللون، في العقد الرابع من العمر، متناسقة القوام، ذات عينين عسليتين، تبادله الابتسامة وهي تتقدم نحوه في هدوء قائلة:

- دكتور أشرف، حمد لله على السلامة، أرجوك بقى استلم؛ لأن أنا تعبت من غرفة18.

نظر لها بكبرياء وبنبرة ساخرة:

- ما هو يا دكتورة "قمر" عشان كده انتِ اتنقلت أقل قسم في المستشفى.

تبدلت الابتسامة بملامح عابسة، فأسرع قبل أن تنطق بكلمة وأردف قائلًا:

- أنا بهزر عشان كل مرة بتضايقي وأنا مش قصدي أي حاجة، المهم إيه الموضوع في غرفة18؟
- حالة صعبة جدًّا، مش فاهمة الحالة دي بالتحديد.
- في حاجه حصلت في الأجازة؟
- للأسف إنه ما حصلش.. بس ليه الحالة دي بالتحديد، بتسيبوله سجاير وكمان ولاعة، وبعدين كمية الورق اللي موجوده كبيرة جدًا؟
- هفهِّمك، كل حاجة بس ندخل المكتب الأول، ونشوف آخر التقرير للحالة.

اتخذا طريقهما إلى السلم حتى وصلا إلى مكتب بالدور الأول ملصق على بابه لوحة نحاسية لامعة مكتوب عليها "المدير العام"، فتح الطبيب الباب، دخل ومن خلفه الطبيبة "قمر" أغلقت الباب من خلفها، فتوجه هو على مقعد خلف مكتبة وهي جلست على مقعد أمامه، ومن بعده ضغط على زر بجانبه وبعد لحظات طرق بابه، فتح ودلف رجل سمين ضخم ذو جثمان قوي وعينين ضيقتين ترى سوادهما بصعوبة، في العقد الثالث من العمر يرتدي مريلة بيضاء وعلى رأسه قبعة بيضاء، يبتسم قائلًا:

- دكتور أشرف، تحت أمرك

بادله الطبيب الابتسامة قائلًا:

- إيه آخر أخبار غرفة "18"؟
- تمام يا دكتور بس ميعاد الجلسة الكهربائية قربت، وكمان أعتقد إن علبة السجاير خلصت ومنتظرين تصريحك.
- لأ، دخلوا علبة جديدة، وكمان الورق اللي موجود جوا أنا عايزه، ودخلوا ورق تاني.

أومأ بالموافقة وهو يخرج من الغرفة متجهًا إلى الدور الثاني..

ما زال جالسًا بآخر ركن مظلم بالغرفة، ناظرًا إلى الأرض بضعف مكسور، يشبه متسولًا يدور بين الأزقة طالبًا إحسانًا وشفقة، حينها سمع صوت أقدام تقترب ناحية تلك الغرفة ببطء، فوقف فجأة وتوجه ناحية الباب في صمت وظل أمامه ينظر إلى نافذة حديدية مغلقة وكأنه ينتظر شيئًا ما، فتح الباب بهدوء ودلف الرجل الضخم وبين يديه علبة سجائر، فأسرع هو عائدًا إلى ركنه يحتمي بظلامه، بعد أن افترش الأرض ظل يهتز مرتعشًا ويتمتم بهمس مجنون، يسمعه الرجل وهو واقف عند مكتبه:

- كهربا لأ يا "حسن" كهربا لأ.

ابتسم الرجل والتقط القصاصات، ووضع مكانها ورقًا أبيض آخر وعلبة بلاستيكية وقنينة من الماء على سطح المكتب ونظر إلى الركن ذاته:

- الكهرباء مش النهارده.

خرج بهدوء وأغلق الباب خلفه وأوصده من الخارج، في حينه كان يترك هو ركن غرفته متوجهًا بشغف إلى مكتبه، التقط علبة السجائر وأخرج منها سيجارة وأشعلها بلهفة ثم جلس على مقعده في هدوء وأمسك قلمه

"قلت لي إنكِ لن تتأخري في قدومك، وها أنا جالس على نفس مقعدي كما وعدتك -في انتظارك-، وأنتِ لم تأتِ بعد، أخبريني أين الطريق؟ أم أن القدر لم يكتب نهايتي بعد، محبوبتي (أحبك دائمًا).

ترك قلمه، أفرغ صدره من دخان سيجارته وهو ناظرٌ إلى سقف الغرفة بشرود، يعيد ذكريات مبنى السفارة؛ عندما شاهد مقعدًا متحركًا يخرج ببطء، ويدفعه من الخلف السفير المصري بقلب مبنى السفارة المصرية، وهما واقفان بدهشة يحاولان إخفاء وجوههما عنهما، "محسن" يخرج من اجتماع رجال الأعمال مبتسمًا واثقًا، صديق شخصي للسفير الذي كان طريقهما الوحيد للخروج، والآن أصبح آخر طريق لهما مغلقًا.. لا مفر وانتهى الأمر، حرية مسلوبة بلا قضبان، محبوسان في بلد الحرية في بلد تدعي الحرية وإبداع انهار في بلد الفن، أسماء دائمة للشهرة والتمجيد والتبجيل "محسن" ليس محسنًا والسفير لم يصبح سفيرًا.. و "حسن" لم يكن "الأحسن"..

وقتها، التفا في سرعة وظلا واقفين في رعب، وحين خروج "محسن" ومعه السفير وانطلاق سيارته تتهادى بالخروج من بابها الرئيسي، التفت السفير وخلفه الشاب المبتسم دائمًا بلا أي داعٍ، أخبره الشاب بأن هناك رجلًا وفتاة يريدان أن يلتقيا به لأمر هام كما أخبروه.

- هما فين؟!

الشاب يشير ناحية مكتبه:

- هنا...

لم يكمل كلمة هناك ووقف بدهشة عندما نظر لم يجدهما، فأردف الشاب قائلًا:

- كانوا هنا معالي السفير..
- طيب طيب، ابقى شوفهم عايزين إيه، واديهم ميعاد تاني.

ظل الشاب يتلفت حول نفسه بصورة دائرية باحثًا عنهما ولكن لا وجود حتى لأنفاسهما. اتجه ناحية الباب الخلفي من مبنى السفارة باحثًا، فوجدهما يسرعان بالخروج و "سامر" قابض على يد "رقية" إلى الخارج بسرعة وخوف، أوقف "سامر" سيارة أجرة، استقلاها مسرعين وانطلق السائق وهما بالمقعد الخلفي ينظران لبعضهما، وضوضاء التقاط أنفاسهم كانت الأوضح والأعلى صوتًا، سألهما السائق عن الاتجاه، فصمت "سامر" للحظات ثم أدرك شيئًا مهمًا.. فقد تذكَّر الشاب المصري صاحب محل الألوان ولكنه لا يعلم اسم الشارع ولا اسم حتى الشاب نفسه، شرد يفكر لحظات و"رقية" قد أيقنت أن أبواب النجاة قد أغلقت، لا أمل في النجاة منهم شعور اليأس لمحها "سامر" بين نظرات "رقية" فنظر لها مطمئنًا.

- إن شاء الله هتعدي ... ما تقلقيش.

حينها مدَّ يده يفتح حقيبته المعلقة على كتفه وأخرج كيسًا بلاستيكيًا بداخله علبة الألوان فأفرغها وأعطى للسائق الكيس، فنظر السائق إليه باستغراب شديد وثرثر بكلمات فرنسية غاضبة فأشار له "سامر" إلى عنوان المحل المطبوع على الكيس البلاستيكي. التقط منه الكيس ثم أومأ برأسه تفهمًا.. والآن أصبح وقت الانتظار، ميعاد القلق المرعب، لا اختيار لطريق.. جميع الطرق مغلقة بلا أمل في فتحها إلا بداية هذا الطريق.

نظرات "رقية" الحنونة جعلت منه ساحرًا أسطوريًّا يخلق مفاتيح لأبواب قد تبدو له في الأحوال العادية لا تُفتَح، لا يستسلم وذلك ما كانت تعشقه "رقية" به، عدم الاستسلام، كان غريبًا وعجيبًا، وفي كل تلك الأزمات أبى فيضان مشاعرهما أن ينحسر، حب مختلف، يبدو أنه حب للمسئولية، ومع الطريق الجديد للنجاة ظلت نظراتها له تسأله في صمت: هل سيصبح طريقَ النهاية أم يصبح طريقَ هروبٍ آخر؟! صمتٌ ملأ طيات السيارة، يشعر هو بتلك النظرات المتسائلة حتى في عز صمتها، ويسمع أنفاسها المرعوبة.. من بين ذلك الصمت والخوف، جاءها صوته وهو ينظر لها بلهفة، ويحتضن يدها بعشق:

- بصي ده هيكون آخر فرصه لينا..
- إحنا رايحين فين؟!
- ده شاب مصري قابلته لما كنت بشتري علبة الألوان، يمكن يكون عنده حل.
- سامر، اعملهم اللي هُمَّا عايزينه، وخلينا نمشي من هنا، أنا ما أعرفش كمان دقيقة إيه اللي ممكن يحصل دول في كل مكان، حتى السفير يا سامر.

ردَّ عليها "سامر" بنظرات ثقة وعزة:

- لا يا "رقية" انتِ شكلك ما تعرفنيش كويس أنا ما بتهزش بسهولة....

فجأة انتفض ذعرًا عندما رن هاتف بجيبه، ثم أخرج الهاتف مبتسمًا:

- آه، إوعي تفتكري إن أنا بتهز ولّا حاجة ده بس الفيبريشن.

أخرج الهاتف ونظر إلى شاشته، وجد اسم "محسن" فنظرت له "رقية" بضيق:

- إيه اللي جاب اسم محسن على تليفونك يا سامر؟!
- تليفوني إيه ده تليفون "حسن" إنتِ نسيتِ، أنا مالحقتش حتى أجيب خط محمول.

ظلا ينظران إلى الهاتف وهو مستمر بالرنين.. هل هو انتظار حقًّا أم تفكير في الرد، كلٌّ منهما كان يفكر بطريق، ولكن عندما صمت الرنين كان السائق قد توقف أمام المحل المطلوب، نظر إليهما وأشار بغضبٍ ناحية المحل وهو يثرثر بكلمات فرنسية بالطبع لم يفهمها "سامر" فأخرج من جيبه التكلفة الظاهرة على جهاز بشاشة رقمية يسمونه "عداد التوصيل"، اختراع عجيب، تدفع تكلفة توصيلك.. لذلك كان تنظر له "رقية" بإعجاب، ثم علَّقت بابتسامة ساخرة:

- هو ده بقي العداد اللي بيقولوا عليه.
- آه يا حبيبتي.. هو دا.. أنا برضو لما شُفته أول مرة اتصورت جنبه سِلفي عشان لما نرجع نبقى أول مصريين استخدموا ده التقنية دي.

ثم نظر لها بسخرية قائلًا:

- يلا يا حبيبتي مش وقت هزار.

أسرعا متوجهين ناحية المحل وهو يمسك يدها جاذبًا إياها خلفه، وعندما دلفا لم يجدا أحدًا.

ظل ينادي و"رقية" تبحث بأرجاء المحل، ولكن لا أحد يجيب فترك يدها قائلًا:

- إستني هنا ما تتحركيش هدخل أشوفه جُوه كده.

تركها ودخل بغرفة داخلية في المحل، كان يبدو أنه مخزن الألوان، دلف ببطء وهو ينادي بصوت عالٍ، ولكن لم يجد ردًّا وهي بالخارج منتظرة بشغف ورعب ملتفتة حول نفسها بخوف ومع تأخر "سامر" بدأ ينفد صبرها، وبدأت هي تنادي على "سامر" وهي متجهة إلى المخزن، فجأة سمعت صوت "سامر" يقترب مذعورًا حتى ظهر مسرعًا بملامح ذعر ورعب وهو يقول:

- يا نهار أسود...

رقيه بنظرات رعب:

- في إيه يا سامر؟!

لم يرد ولكنه التقط يدها بسرعة وجذبها مسرعًا خارج المحل مهرولين بأسرع ما يكون وسامر يلتفت خلفه في كل خطوة.

- قتلوه...

رقية وهي تهرول خلفه:

- قتلوا مين؟؟

لم يرد "سامر" وظل مهرولًا جاذبها بيده حتى وصلا إلى نفق مترو، وما زال محاولًا الهروب إلى أبعد مكان عن منطقة محل الشاب المصري المقتول، نزل سلمها مسرعًا حتى وصلا إلى شباك تذاكر المترو. وقف وأسرع في حجز تذكرتين، بإشارة إلى عامل الشباك يعلم أن هذا الاتجاه محطته الأخيرة هي حي "لاديفانس " أو حي لم الواقع غرب العاصمة الفرنسية، حي له أهمية على المستوى التجاري والسياحي في آنٍ واحدٍ، ويكتظ الحي بالعديد من الشركات والمكاتب التي يرتادها آلاف الموظفين يوميًا. استقل المترو بعد توقفه بالمحطة، أخذا يهرولان داخل عربات المترو إلى أن استقرا على المقعد. وما إن انطلق المترو وترك المحطة حتى كانا هما جالسين يلتقطان أنفاسهما في هدوء ولكن قبل أن تهدأ أنفاسهما تمامًا، صرخت "رقية" صرخة مدوية أفزعت "سامر" فانتفض من مقعده.

صوت أقدام يقترب ناحية الغرفة ...واحتكاك حديدي من فتح أقفال الباب من الخارج وهو بالداخل جالس على مقعده باستسلام شديد حتى اقترب رجلان بزيٍّ أبيض يمسكانه من ذراعه بلطفٍ حتى وقف مكانه وخارجا به من الغرفة وهو يسير معهم ببطء شديد، يجر قدميه على الأرض جرًّا.. شعره الطويل غير المهذب ظهر من تحت تلك القبعة التي يرتديها دائمًا، وملابسه بدت أوضح متسخة مليئة بألوان الرسم، وجسده الرياضي أصبح جسدًا ليّنًا مترهلًا. ظلا يسيران به بالممر ثم استقلا المصعد هابطين به إلى الدور الأول حيث مكتب الطبيب "أشرف"، توقفا وطرق صاحب الجسد الضخم الباب، فُتِح باب المكتب، نظر لهما الطبيب وهو يترك مكتبه متقدمًا نحوهم قائلًا:

- خلوها جلستين، بين كل جلسه ساعة.

ثم أردف لصاحب الجسد الضخم:

- فين التقرير يا حسن؟

وضع "حسن" يده من أسفل مريلته، ومدَّ يده بالتقرير للطبيب قائلًا:

- اتفضل يا دكتور، بس مش كثير جلستين في وقت واحد كده؟
- لأ، هيستحمل.

ثم تركاه وانصرفا في هدوء وهما يجذبان الحالة بهدوء، في حين اتجه الطبيب إلى مكتبه مرة أخرى وفي يده التقرير.كانت الطبيبة "قمر" ما زالت جالسة على مقعدها المقابل له يتشاوران على نفس الحالة بغرفة "18"، اعتدل في جلسته وهو ينظر لزميلته مبتسمًا، مادًّا يده يسلمها قصاصات مرتبة بأرقام محددة

- اللي في إيدك دا اسمه عبقرية، كملي قراءة وشوفي إزاي سرد طريقة الموت بطريقة مفصلة مبهرة، مريض الفصام لا يمكن تحت أي ظرف إنه يكون منظم بالدرجة دي، أو تكون مشاعره مرتبة ومنتظمة، دي حالة فريدة من نوعها.

كانت "قمر" تنصت له وهي تفر بين القصاصات حتى انتبهت إلى بداية النهاية، هكذا كان عنوان الورقة رقم "18"، فأذنت الطبيب "أشرف" أن تقرأ تلك السطور:

- الفصام ده مرض مزمن زي السكر والضغط مالوش سبب معروف، في المرض ده بيحصل خلل في إفراز مادة في المخ تسمي الدوبامين فتبدأ المادة تعطي تأثيرًا أقوى في غير المرضى مما يؤدي إلى أن يتخيل المريض أنه يسمع أو يرى أو يشعر بأشياء غير موجودة و يفكر بشكل غير منطقي، يعني ممكن يشوف نفسه حد غير نفسه أو يشوف غيره حد هو عايز يشوفه.. المرض دا مالوش علاج، ومؤلم، تخيلي نفسك إنك عايشه جُوَّه حد تاني، أو حد عايش جواكِ، ومهما حاولتِ السيطرة عليه بيزيد توغله أكتر وتبقي انتِ شخص غير نفسك، وده بيكون عكس الوهم ممكن في الآخر تخرجي منه لكن المرض ده خروجه مستحيل يتعرف من عنيه، مريض الفصام بيكون عينه واضحة ومطفية مافيهاش نور.

وبعدما انتهت من قراءتها، نظرت إلى الطبيب "أشرف" بسؤال:

- ده أكيد مش مرض، في شيء غريب في الحالة، مع إني قريت تقريبًا التقرير بتاع الحالة كلها اللي وصلنا من وزارة العدل، وعشان كده كنت بقولك إن الحالة دي محيره جدًا.

نظر لها "أشرف" مبتسمًا:

- عشان كده الحالة دي هي رسالة الدكتوراه بتاعتي.

نظرت له ساخرة:

- مش سهل برضو إنت يا دكتور.
- لأ طبعًا، بس خلينا نشوف بعد جلسة الكهربا إيه اللي هيحصل، وهل طريقة الكتابة هتختلف ولا لأ، الحالة دي بالتحديد توقفت عندها الذكريات عند يوم الحادثة، ودي مش أول مرة يتكتب فيها الذكريات، وفي كل مرة كانت بطريقة مختلفة، لكن المرة

دي مكتوبه بحرفية شديدة وتفصيلات أكثر، والكتابة بين الراوي ونفسه توحي بإنه عمل فني، وده هو أصل الموضوع.

استمعت الطبيبة بتركيز.

- لكن تغيير الأسماء في كل مرة، ده دليل إن الواقع ما زال بياخد حيز من العقل، وده معناه إن ما فيش مرض، وتشخيصه على أساس إن انفصام يعد تشخيص خاطئ.

وقف الطبيب ثم تحرك متجهًا إلى مكتبة خشبية بجوار مكتبه، التقط ملفًا بلون أزرق يحمل صورة لفتاة، ثم مد يده به إليها:

- طيب اقرى التقرير ده كده، وبعدين نتكلم

في الدور الثاني، كان الممرضان يجتذبان الحالة متجهين إلى غرفة "18"، ما إن وصلا إلى باب الغرفة حتى فتحاه ودلفا داخلها وألقيا بالجسد على سرير الغرفة بهدوء، وتركاه وخرجا مسرعين مغلقين الباب من خلفهما. عاد الظلام للغرفة من جديد، استلقى بإعياء واضح وعلى ملابسه تظهر بقايا عصارة معدته، وعيناه مفتوحتان ينظر إلى سقف الغرفة بشرود محدقًا فيه ببلاهة، وجاءه صوت كان همس مناديًا عليه:

- سامر.. سامر.

حينها حاول النهوض من مكانه ولكن الإعياء كان أشد من مقاومته، حاول مرارًا إلا أنه غلبه اليأس واستسلم إلى هزلان جسده، فخرت من عينيه دموع تلألأ بين ظلام غرفته وما كان يبتسم إلا عندما سمع صوتها تناديه بحب:

- إنت بتبكي، خلاص يا منى الروح، قرب اللقاء وفي انتظارك.

فأغلق عينيه على دمعته فخرجت من بين جفنيه تسير على منحنيات وجهه، تأخذ طريقها وهو مستلقٍ على ظهره.. حتى سقطت. دقائق مرت أو ساعات لا يعرف، الزمن يلغي من عقله حسابات الدقائق والثواني، ميقاته هو من يحدده، متى ينتهي يومه ومتى تبدأ نهايته، في عالمه لا بداية وإن بدأت فبالتأكيد ستكون هي بداية لنهاية مثلما ما عادت إليه ذاكرته بعدما صرخت "رقية" وهما جالسان بمقاعد المترو، حينها انتفض "سامر" بذعر ووقف ملتفتًا خلفه، ولكنه زفر نفسًا عميقًا بارتياح بعدما وجد رجلًا بلحية بيضاء كثيفة، ووجه متسخ يرتدي ملابس بيضاء رياضية متسخة، فنظر إلى "رقية" بامتعاض:

- حرام عليكِ يا "رقية" أنا قُلت حسن ورايا.
- إنت مش شايف عامل إزاي.. ده كان ممكن يضربك.
- ده مريض نفسي يضرب إيه بس، دول أغلب بشر، عقولهم مسلوبة.

- يعني إيه؟
- لا، ده موضوع كبير أوي يطول شرحه.

صمتت "رقية" وهي تنظر للرجل بنظرات مشفقة، مؤلم حقًا أن ترى نفسك مثله.. أحيانًا نصبح مرضى بلا ملامح، مرضى بأحزان تسلب عقولنا في خفاء بعيدًا عن أعين الناس، أمراضنا نفسية خفية لا يحس أحد بها، فقط تقتلنا بهدوء، ننهار وحدنا بلا رجعة ويتبقى لنا أشلاء نفوسنا المتعبة، تجعل منا مجذوبِّين متسولين، مثله تمامًا؛ مجذوبًا لكنه صاحب أكبر شركة في لاديفانس في فرنسا..

توقف المترو بمحطته الأخيرة ورقية ما زالت شاردة تبحث عن سبب جنون الرجل.. ولكن قطع شرودها "سامر" عندما أمسك بيدها:

- يلا بينا يا رقية.

توقفت لحظات تطيل النظر إلى "سامر" وهو يجذبها بلطف للخروج من عربة المترو وحينما خرجا وتحرك المترو أوقفته قائلة:

- سامر؟؟ هو أنا لو متّ إنت ممكن يحصلك كده؟

نظر لها "سامر" بعشق والخوف يأكل ملامحه، كلمة كسهمٍ مسموم شقَّ قلبه لنصفين، ازداد وجيب قلبه بقسوة، فكرة مرعبة أن يصبح بدونها، لم يتمالك نفسه فجذبها بقوة ناحيته وأخفاها بين ذراعيه بعشق، احتضنها بقوة وكأنه يريد أن تلامس عظامه، يريد أن يبتلعها بداخله حتى تبقى وتبقى وتبقى إلى يوم نهايته، حب أناني ولكنه هكذا يكون الحب بجنون. وقبل أن يتركها من بين ذراعيه بهدوء تحدَّث إليها قائلًا:

- إنتِ مش هتموتي يا رقية، أنا من غيرك ولا حتى أمراض الدنيا تكفيني.. الحياة من غيرك موت.
- سامر.. أنا بحبك وعندي استعداد أبقى معاك في أي حاجة انت عايز تعملها ..بس بجد إحنا محبوسين هنا، وما أعرفش الدنيا هتودينا لفين.
- مش مهم نبقى فين، المهم تبقي معايا.

تركت "رقية" أحضانه بفزع ونظرت له بشغف:

- طب هنعمل إيه دلوقتي؟!
- ما أعرفش.. بس أكيد في حل.
- هنروح فين يا سامر؟! أنا خلاص مش قادرة عايز أنام.. وجعانة.
- طيب تعالي.. هأكلك أكلة هنا رائعة.

أمسك يدها وتوجها إلى سلم المترو للصعود خرجا في هدوء، "سامر" بعقلٍ يفكر، ورقية بعقلٍ مبهور، كان أمامهما حي مبهر، بنايات عالية أنيقة، توقفت "رقية" فجأة أمام مبنى زجاجي وجذبت يد "سامر" للتوقف، أشارت برأسها إلى أعلى بدهشة وبعد أن أعقبها "سامر" بالنظر، وجد لوحة كهربائية مضيئة مكتوب عليها "Mohsen Conseil juridique" تبادلا النظرات المقلقة:

- هي دي كلمة محسن صح؟!
- آه محسن بس الباقي ما أعرفش إيه..
- ممكن يبقى اسم مشابه أكيد استحالة يكون محسن بيه.
- أه ممكن صح

تحركا من أمام المبنى بخطوات هادئة شاردين بنظراتهما بكل مكان بالحي حتى توقفا عند مطعم .. .. M Group restaurantنظر حينها إلى "رقية" وهو يشير ناحية المطعم، بإشارة منه بالدخول ومن ثم دخلا مسرعين إلى صالة المطعم المكتظة بالبشر، هدوء لا تسمع حتى صوت احتكاك الملاعق بالأطباق، وقبل أن يكملا الخطوة الثانية، ظهر شخص أنيق مبتسمًا بلطف، وبدأ يحدثهما باللغة الفرنسية وهما واقفان ببلاهة، فنظر "سامر" لرقية مبتسمًا:

- اعملي نفسك فاهمة وهزي راسك بهدوء وابتسمي وامشي عادي ده مضيف المطعم.

لم تضيع وقتًا "رقية" وبدأت بالفعل، وكلما اتخذا خطوة للدخول أشار الشخص بالرفض، فبدأ صوت المضيف يتعالى وسامر وسط كل هذا الهدوء صوته أصبح واضحًا وعاليًا، ولكن في حين تراشق "سامر" مع المضيف باللغة العربية وقليلٍ من اللغة الإنجليزية، كانت آخر طاولة بصالة الطعام يجلس عليها رجل مع زوجته، كان يبدو عليه الاحترام والرقي، ينظر من بعيد للموقف مبتسمًا ثم استأذن من زوجته بلطف واتجه ناحيتهما مبتسمًا.. حتى وصل إليهما قائلًا:

- بيقولك ما فيش مكان متاح حاليًا.

نظر له "سامر" مبتسمًا:

- الحمد لله إنت مصري؟

فتقدَّم له يمد يده بالسلام إلى "سامر" مبتسمًا بترحاب راقٍ:

- أنا الدكتور أشرف مدكور.

ثم نظر إلى رجل الاستقبال، وتحدث معه وهو يشير إلى طاولته، هز الرجل رأسه بالموافقة وسامر ورقية واقفان بنفس بلاهتهما التي رافقت تعبيرات وجه كل منهما، ثم توجهه

الدكتور أشرف إليهما مبتسمًا بترحاب بالغ، وأشار لهما بالجلوس إلى طاولته بالصالة، في حين توجههم إلى الطاولة، توجه "سامر" بملامح يملؤها الحرج إلى "أشرف" قائلًا:

- أنا بجد آسف جدًا. وأشكر حضرتك على استضافتنا على ترابيزتك.

نظر له الطبيب مبتسمًا بلطف:

- لا شكر على واجب واضح عليكم إنكم تعبانين ومرهقين.. اتفضلوا.

ومن بعده اقتربت "رقية" إلى أذن "سامر" هامسة بسخرية:

- فضِلت بس تقولي هأكّلك أكلة حلوة، وأكله جامدة، حسستني إنك حفيد نابليون.

فابتسم "سامر" وهو يرفع أصبعه إلى فمه مشيرًا لها بالصمت؛ لأنهم الآن وصلوا جميعًا إلى الطاولة التي وجدا بها مقعدين فارغين، وكأن القدر كان يرتب لتلك المقابلة من قبل. جلس "سامر" و"رقية" بخجل ينظر كلاهما إلى الأرض، حينها قطع الطبيب صمتهما سائلًا:

- تطلبوا إيه للأكل؟

فجاوبه "سامر" بنبرة يشوبها بعض الحرج:

- بصراحة إحنا جعانين جدًا.. أي حاجة لأنه إحنا مش عارفين أي حاجة هنا.

نظر الطبيب لهما وأشار بيده للنادل وطلب منه شيئًا لا يعلمه "سامر" أو "رقية" إلا بعد أن تم تقديمه إليهما على الطاولة، أخذا يأكلان بسرعة وبشهية وكأنهما لم يأكلا من زمن بعيد وسط نظرات الطبيب وزوجته لهما بشفقة، انهمك "سامر" في الأكل ولم ينقل نظرته من الطبق إلا بعد أن أتى على ما فيه، سألهما الطبيب مبتسمًا وهو جالس متكئًا بيده على الطاولة في أريحية:

- انتم قاعدين فين؟!

فأجابه "سامر":

- إحنا لسه مش عارفين هنقعد فين، حصلت معانا مشكلة، واضطرينا نسيب مكانًا ونشوف مكان تاني.
- واضح عليكم إنكم متجوزين جديد.

تردد "سامر" في الرد:

- آه لسه ما بقالناش كام شهر.. وجَتلي فرصة هنا.. اضطرينا نبقى مع بعض.. وكمان أشوف حل لعلاج رقية.

- ليه خير؟!
- "رقية" مريضة وكانت محتاجة تعمل عملية لكن حصلنا مواقف خلتنا ما قدرناش نعملها.
- طب ممكن أستضيفكم عندي لغاية الصبح؟ وإن شاء الله يكون خير.

نظر "سامر" للطبيب بعرفان بالغ، بينما سالت دموع "رقية" من الخجل، فلمحتها زوجة الطبيب، وقفت من مكانها واتجهت إليها واضعة يدها على كتفها، ضمتها إليها بلطف، حينها نهض الطبيب مشيرًا إلى باب الخروج، كانت السيارة الخاصة بالطبيب متوقفة أمام المطعم، دخل هو وزوجته ومعهما "رقية" وسامر، وقبل أن ينطلق أشرف، فجأة سمع صوت إطلاق نار من الخلف، نظر "سامر" وجد حسن مسرعًا مهرولًا ناحيتهم بغضب.

صريخ "رقية" بشدة أفقدها وعيها من فزعة صوت إطلاق النار، أما "أشرف" فانطلق بسرعة كبيرة بعد أن طالبه "سامر" بذلك، وزوجة الطبيب بالأمام تضع يدها على أذنها مطأطئة رأسها إلى الأسفل و"سامر" بالخلف محاولًا تغطية "رقية" بجسده خوفًا من طلقة طائشة تنهي حياتها، لم يفكر إلا بها، هكذا كان طيلة تلك الأيام من بعد رؤية ملاكه البريء.. صوت طلقات الرصاص ما زال يأتي من الخلف، حتى اخترقت رصاصتان واحدة للزجاج الخلفي والأخرى بكاوتش السيارة الأيسر الخلفي، نظر سامر فوجد "حسن" مسرعًا خلفهم محاولًا اللحاق بهم مناديًا على "سامر" بغضب بالغ:

- ساااااامر..

وقف مرتكزًا ثم صوب رصاصته إلى إحدى عجلات السيارة الخلفية فاستقرت رصاصة أخرى بالعجلة اليمنى، انحرفت واصطدمت بمبنى خرساني تحت الإنشاء وحينما كان يسرع حسن ناحيتهم محاولًا الإمساك بهم كان الطبيب قد انطلق بسرعة سالكا طريقًا فرعيًا محاولًا الفرار مما جعل "حسن" يتوقف عن الجري محاولًا التقاط أنفاسه، حينها كانت السيارة قد اختفت عن أنظاره تمامًا. كان "أشرف" وزوجته الجالسة بجواره يحاولان التماسك والهدوء ومن الخلف "سامر" ينظر إلى "رقية" وهي فاقدة الوعي.

- أرجوك يا دكتور وصلنا لأي مستشفى بسرعة.

نظر له "أشرف" من مرآة السيارة في صمت، ثم أكمل طريقه بدون أن رد، هز "سامر" جسد رقية، وهي لا تستجيب، الأمر الذي أقلقه وعصف به، وأخذ ينقل نظراته بين الجسد والطبيب مستجديًا:

- أرجوك يا دكتور ودينا أي مستشفى.. أرجوك.. "رقية" مش بتتحرك..
- إنت في إيه بينك وبين الناس دي؟!!

صمت "سامر" بلا رد وبعد رؤية نظرات الطبيب الملحّة:

- هقولك على كل حاجة بس وديني المستشفى.

صمت الطبيب وأومأ برأسه بالموافقة وزوجته بجانبه ما زال الرعب يأكلها، كانت تحاول أن تتمالك نفسها ولكن بلا فائدة، صخب الأسئلة الملحة أفقدها هدوءها، ولكن لم يفقدها رحمتها، طلبت من زوجها أن يذهب باتجاه أي مستشفى، وبالفعل كان الطبيب متوجهًا إلى مستشفى قريبة بعجلة أفقدت السيارة اتزانها، وتمشي كعاجز بلا عكاز، حينها كان "سامر" يأخذ رأس "رقية" ويدفنها في صدره، بينما يشعر بألم مبرح في جنبه، نظرت إليه زوجة الطبيب سائلة:

- مالك يا سامر؟!

أجابها "سامر" بتعب:

- لا أبدًا ما فيش بس أقرب مستشفى.
- لأ في حاجة أكيد إنت ماسك جنبك كده ليه؟

التفت بكامل جسدها وقبل أن تسأله مرة أخرى وجدت بقع دماء كثيرة على قميصه فصرخت بكل ما فيها:

- بسرعة يا أشرف، "سامر" بينزف.

****

حاول النهوض من سريره، كان العرق يتقاطر من جسده، وقف متعكزًا وخطا بوهن متجهًا إلى مكتبه، جلس وأمسك قلمه وبدأ يكتب بخطوط متعرجة:

"لم تكن النهاية يا من عشقتُ حتى صمتها، كنت الوطن وما زلتِ أصل الحياة، محبوبتي ما زلت في الانتظار وقطار النهاية لم يأتِ بعد، كنتِ لي طريقًا، لم أنسَ دخولك خلسة تطمئنين على جروحي وأنا ما زلت في عالمي الآخر، أنفاسك كانت عطرًا يفوح بغرفة المستشفى، وأنا بين موت وحياة، كانت أنفاسك تعيد إلى الحياة.. محبوبتي، ما زلت في اشتياق رؤياكِ، وما زلت في الانتظار"

ترك قلمه بهدوءٍ، وتحرك محاولًا الوقوف ولكن كان التعب أقوى من مقاومته على الوقوف. جلس مجبرًا ودفع بقدميه حتى تحركت عجلات المقعد ببطء. وصل إلى جدران الذكريات، وظل ناظرًا بشرود إلى لوحة لوجهة فتاة.

وصل "أشرف" إلى باب المستشفى الأقرب لهم، مسرعًا، طالبًا المسعفين و "رقية" ما زالت فاقدة الوعي و"سامر" بين الحياة والموت، طلقة طائشة استقرت بظهر "سامر" أفقدته الكثير من الدماء، دخل المسعفون بسرعة وأخذوا كل واحدٍ إلى طريق، "رقية" إلى الطوارئ، و "سامر" إلى غرفة العمليات.

افترقا كلٌّ في طريق، زوجة الطبيب مع "رقية" بغرفة الطوارئ، والطبيب يسرع مع "سامر"، الفاقد الوعي على ناقلة المستشفى يسيرون به في ممر طريق العمليات وأضواء كشافتها تتسارع كوميض فلاش كاميرا، أما "رقية" فكانت بطوارئ الإعاشة، ملاك لم تتغير ملامحها، وزوجة الطبيب بجانبها تنظر إليها بعطف شديد، والطاقم الطبي يحاولون إفاقتها، كانت تأكيدًا لأن الرحمة ما زالت موجودة، ما زالت هناك قلوب عامرة بالإنسانية، ورأتها "رقية" في نظرات زوجة الطبيب حينما بدأت تستعيد وعيها ببطء وهي تهمس باسمه هو بلهفه هادئة وصوتها الملائكي يملأ جنبات غرفة الطوارئ بسعادة باسترجاع وعيها، نظرت زوجة الطبيب في حنان وهي تمسح بيدها على رأسها:

- حمد لله على السلامة.

نظرت "رقيه" بين أرجاء الغرفة في شغف:

- "سامر" فين؟!
- مع الدكتور.. ارتاحي انتِ وأنا هروح استعجلهم.

بهدوئها المعتاد أخفت عنها الكارثة، لم يبقَ لها إلا هو، مصدر أمانها وحلمها.. وحيدة كانت وأصبحت به مالكة للعالم بأكمله حتى وإن كانت أحداثهما قاسية وحبهما وُلِد من قلب الألم لكنه أفاض بعشقه وجدانها وجعل منها أميرة على عرش قلبه، عالمهما كان الأروع بلحظات عشقهما المحدودة.. مشاعر بلا حدود يرتوي منها كل ظمآن عشق وتفيض كالسيول، لوحة على بوابة عالمهم مكتوب عليها:

(أحبك حتى الموت)

حلم الحب دائمًا ما يراودنا ولكننا دائمًا فاشلون حتى في الحفاظ عليه، حبهم كان أقوى من الفشل، وحتى آخر لحظاتهما استمر فيض المشاعر بلا توقف.. خوف، ولهفة، واشتياق جامح لا يوقفه إلا نظرات تشفي علة الحب ونبضاته، الحب كالموت: الحقيقتان الوحيدتان في هذا العالم.

أحست "رقية" بانقباضة في قلبها، كأم تمتلك حاسة قوية تبنئ بالخطر.. قلق وشكّ يضربان صدرها وهي بغرفتها وزوجة الطبيب تهرول في رواق الدور الثاني لتعلم آخر

الأحداث، أسرعت إلى أن وجدت زوجها بآخر الرواق عند باب غرفة العمليات، يقف شاردًا في حزنٍ واضح، فتقدمت نحوه بخوف بخطوات متراجعة:

- إيه يا أشرف الموضوع في حاجة جامدة كده؟
- ربنا يستر الرصاصة مستقرة في الكبد.

أمسكت فمها رعبًا وخوفًا ودهشة:

- طب يعني إيه فهمني؟!
- إنتِ دكتورة وفاهمة بس هما بيحاولوا معاه جُوَّه.
- ربنا يستر يا رب، "رقية" فاقت وبتسأل عليه ومش عارفه هقولها إيه!
- صبريها بس بأي حاجة لغاية ما نعرف.
- هو أنا قُلتلهم على فحوصات عشان نعرف إيه موضوع العملية بس عندي إحساس إنه خير.
- إن شاء الله.. روحيلها بس انتِ وخليكِ معاها.

تركته في حزنه منتظر خبر يكاد أن يتحقق، وقبل أن تكمل خطوتها الثانية كانت أمامها "رقية" متكئة على حائط الرواق، تنظر لهما بدموع، أبٌ مات بحسرة و"سامر" بين حياة أو موت، كلاهما كانت هي سببًا في فقدانه، كانت تحمِّل نفسها مسئولية فقدهما، أسرعت إليها الزوجة تلتقطها قبل السقوط و"أشرف" من خلف زوجته مهرولًا باتجاههما، ولكنها سقطت وافترشت الأرض باكية، تتحدث والدموع تسيل من عينيها:

- أنا ما ليش حد غيره، بابا مات بسببي و"سامر" كمان هيموت صح؟

رفعت نظرها لتنظر لهما وهما واقفان ينظران إليها بشفقة، جثت زوجة الطبيب على ركبتيها وتحدثت إلى "رقية" باكية:

- إن شاء الله هيقوملك بالسلامة، ما تخافيش.
- لا أنا حاسة إنه مش هيرجع، مع إنه وعدني بإنه مش هيسبني.. أول مرة يخلف وعده معايا.

نظرت لهما بنظرات جنون مفاجئة، ثم ابتسمت:

- بس "سامر" مش هيموت "سامر" مش هيموت.

تابعت من جديد وهي توزع نظرات بينهما:

- مش هيموت هيرجع صح، ردو عليَّ بالله عليكم طمنوني أنا ما ليش غيره.. وهو كمان مالوش غيري، طب أقولكم قولوله إني عملت العملية ونجحت هيرجع أنا متاكدة، هو مش هيسبني.

الآن أصبحت "رقية" منتظرة لنهايتها، ستفرغ قدرتها على التحمل أو ربما تجن، أخذت الخيالات تدور بدماغها، وفجأة سُمِع صوت باب العمليات يفتح ويخرج منها طبيب مسرعًا، وملامح وجهه بلا أي تعبير، نهضت "رقية" مسرعة إليه وكأن لم يصبها مرض ومعها "أشرف" وزوجته، تسأله بشغف ولهفة، بلغة لم يتفهما الطبيب، فأمسكه الطبيب وأبعده عنها، ووقف لحظات يستمع إلى حالته ثم تركه ودخل إلى الغرفة مرة أخرى. اتجه "أشرف" إلى "رقية" ثم وقف في صمت للحظات..

الفصل الرابع

بدونَك

أشعر بضربات قلبك الآن تتسارع كأنها سيارات رياضية في مضمار سباق بلا توقف في انتظار خبر مؤلم، وملامح وجهك اختفت خلف حزن عظيم، فاقد الحياة أنا بالداخل وأنتِ فاقدة الزمن بالخارج، عندما توقف بك في انتظار كلمة تشفي غليل خوفك، محبوبتي، وعدي كان حقًّا عليّ، وفديتُك بكل ما أملك الآن، أحببتك ليس كأساطير العشق، أنتِ أسطورة حب جديدة كُتبت بين الأساطير، لا جولييت أنتِ ولا ليلى، أنتِ أروع منهن، أنتِ حُلم يراودني حتى في لحظات الألم، حب بدأ في لحظات شجن ولم ينتهِ ولن ينتهي ما دام القلب ما زال ينبض باسمك في صمت، محبوبتي، ما زلت في الانتظار، وقد تكون تلك هي رسالتي الأخيرة، اعذريني أنني لم أوفِ بوعدي، وأنني لن أعود..

"أحبك حتى الموت"

ترك القلم ودموع هادرة هادئة تسيل على وجنتيه تتساقط على قصاصات كتاباته، وقف من مقعده وأسرع ناحية الجدران ونادى بصوت عالٍ:

- ساااااامر.. إنت فين، إنت فين..

نظر بأرجاء الغرفة بذهول يبحث بين أركانها بلهفة:

- إنت فين، إنت فين...

صريخه أصبح أعلى، أسرع ناحية باب الغرفة وظل يطرق بابها بعنف وحينها كانت أصوت أقدام تقترب مسرعة ناحية الغرفة وهو ما زال بصريخ مجنون ينادي:

- إنت فين يا سااااااامر؟

فتح الباب حينها ودخل رجلان بزيٍّ أبيض وأمسكاه من ذراعه ومن خلفهما يظهر الطبيب "أشرف"، قائلًا:

- إهدي يا "رقية".
- أنا مش "رقية" ما حدِّش يقولي رقية، "رقية" ماتت أنا اسمي "سامر".

أردف الطبيب "أشرف":

- طيب خلاص اهدي بس في إيه اللي حصل؟!

أشار الطبيب "أشرف " إلى الممرضين أن يتركاها في هدوء، واقترب منها بلطف وأمسك يدها بحنان وهي تنظر له بدموع حبيسة:

- أنا فاكر كل حاجة كأنها إمبارح مش قادر أنسى فجأة بقيت وحيد.
- رقية..

قاطعه بحسم:

- أنا مش رقية، "رقية" ماتت، أنا فاكر آخر مرة أشوفها فيها لما كنا في المستشفى.

وتركته وذهبت إلى آخر ركن بالغرفة وجلست على الأرض تنظر لهما بشرود و"أشرف" في صمت واقفًا مشيرًا للممرضين بالخروج، ثم نظرت "رقية" إلى الأرض من بين يدها المتكئة على ركبتيها وكأنها تتحدث مع أرض الغرفة:

- ليه كل اللي بنحبهم بيموتوا وبتبلعيهم حتى من غير وداع؟

ثم صمتت لحظات وفجأة نهضت بسرعة واتجهت مسرعة إلى منضدة كتاباتها وأمسكت قلمها وبأطراف قميصها المتسخ مسحت دموعها وكتبت:

"أحبك حبيبتي حتى الموت، ما فائدة القلب دون حبك. انتظرت طويلًا للقائك وعدتِنني ولكن قطاري لم يأتِ، بعد ويبدو أنه لم ولن يأتي، وسأظل محبوسًا أنا هنا في هذا العالم الفاني، وأنا يا محبوبتي من الانتظار قد مللت، وأخبرك يا من عشق الهواء أنفاسها، لقد حجزت تذكرة الوداع، سآتي إليكِ بأسرع ما يكون، انتظريني بمحطتنا الأخيرة هل تذكرينها حبيبتي، أشتاق إليكِ وما زلت ولا زلت أحبك.

تركت قلمها ونظرت إلى الطبيب " أشرف" وهي تحدق به مقتربة منه وبحدة قالت:

- تعرف إيه عن إنك تبص حواليك تلاقي العالم اختفى فجأة ولما تبص في مرايا حتى نفسك ما تشوفهاش، حسيت يوم إنك تفضل عايش وإنت حد تاني قولي هتعمل إيه لو صحيت مرة واحدة، تلاقي أقرب الناس ليك بقى ذكرى في صورة على حيطة بشريطة سودا، إحنا كلنا ميتين وما حدِّش فينا عايش واللي فاكر نفسه عايش يبقي مجنون أنا "سامر" وهفضل سامر.

ثم توجهت إلى الجدار وهي تشير إلى اللوحات:

- بص اللوحات دي طول عمري كنت بحلم إنها تبقى لوحات على جدار الفن لكن للأسف الدنيا ما إدتنيش فرصة وبقت على جدار الوجع والألم، يا دكتور "رقية" مش بتعرف ترسم.

ظل الطبيب صامتًا، مستمعًا بحزن، ثم تركها واتجه خارجًا من الغرفة، أغلق خلفه الباب وسار في ممر غرف مغلقة حتى وصل إلى مكتبه وكانت الطبيبة " قمر" منتظرة بالمكتب نظر لها بحزن وهو يومئ برأسه بلا فائدة:

- إيه يا دكتور ما فيش فايدة؟

أنا أول مرة أشوف حالة فصام بالطريقة دي رافضة المجتمع بصورة غير طبيعية، كل مؤشراتها العقلية بتاعتها سليمة ومع جلسات الكهرباء برضو ما فيش أي تحسن، الزمن وقف عند وفاة "سامر" ومش قادرة تقتنع إنه فعلًا مات ده غير إنها متوهمة أحداث ما حصلتش من الأساس، يعني مثلًا..

توجه إلى مكتبته والتقط من أدراجه قصاصات أخرى تشبه قصاصات "رقية" بالغرفة ووضعها أمامها:

- اقري كده اللي كاتباه أحداث غريبة، المرة اللي فاتت اتقابلوا في ألمانيا، واتقتل من "حسن".
- آه صحيح، هي الأسامي اللي بتختارها متشابهة مع أسامينا كتير، حتى في آخر قصة كتبتها برضو كانت نفس الأسماء، وبرضو "سامر" اتقتل من "حسن" .
- حسن ده الممرض اللي بيجهز جلسات الكهرباء.

أخذت تقرأ في الأوراق واتسعت عيناها عندما وجدت اسمها من بين شخصيات كتاباتها، فنظرت لأشرف" بحزن، فقال:

- محسن" يبقى جوز أمها اللي كان السبب أصلًا في حادثة "سامر".

فنظرت للطبيب قائلة:

- أنا كمان أخدت بالي من إنها عملتني في قصة فرنسا أخت "سامر" ولا هي قصدها قمر تانية غيري أنا مش فاهمة حاجة هي إزاي بتوصف الأحداث بالصورة دي وكأنها كانت فعلًا هناك

أجابها "أشرف":

- مش عارف يا دكتورة بس الحالة دي عجيبة ومش قادر أوصل لتشخيص معين للمرض ده والمشكلة إنها بتكتب بتركيز وإتقان شديد جدًا.

- طيب هي ممكن تفكر في الانتحار؟
- أعتقد إنها بتفكر، مع كل نهاية لقصة جديدة بتكتبها، لكن الشخصيات اللي بترسمها في خيالها هي اللي مخلياها متماسكة؛ لأنها بتعيش كل اللحظات، لكن الأغرب إنها مش قادرة تقتنع حتى الآن إن "سامر" فعلًا مات مع إنها بتكتب ده وبتيجي عند لحظة الموت وبتقف ما تكملش.

ما زالت قمر تقرأ بقصاصات الأوراق بدهشة كبيرة.

- هي في كتابتها خلت "سامر" هو الرسام هي إدته في خيالها كل حاجة هي تملكها، للدرجة دي كانت بتحبه.
- الموضوع عدى حتى مرحلة الحب اللي نعرفه أو بنقرأ عنه، ده موضوع مختلف تمامًا يا قمر.. على العموم أنا هجرب طريقة تانية للعلاج يمكن تجيب نتيجة.
- إن شاء الله . هو ممكن أروح أشوفها من ورا الباب؟
- آه ممكن، مع إنك كنتِ عايزة تسلمي وتمشي، إيه الاهتمام المفاجئ؟!

أجابت وهي تترك مقعدها متجهة إلى باب الغرفة:

- ما أعرفش انت عندك حالات أصعب منها بس الحالة دي عجيبة.. رسامة وبتكتب قصص كل ده وهي مريضة نفسيًا.

رد أشرف:

- آه صحيح، هي والدة "سامر" ما بقتش تيجي تزورها؟
- والدة "سامر" توفت بعد "سامر" بسنة.
- ورقية مش بتسأل عليها؟
- لأ ..

أغلقت الباب واتجهت إلى غرفة رقية، تسير في رواق الدور بين تلك الغرف المغلقة حتى توقفت أمام غرفتها، وقف الممرض المسئول عن الدور فتح لها نافذة صغيرة بالباب؛ لتطمئن في صمت على رقية، وجدتها جالسة على مقعدها تكتب على قصاصات أوراقها بتركيز، غير ملتفته إلى صوت فتح النافذة، وفجأة تركت القلم من يدها وأشعلت من علبة سجائرها وأفرغت دخانها بملل وشرود، وهي تتحدث إلى نفسها.. ظلت "قمر" تراقبها وهي تنظر إلى سقف الغرفة تتحدث إلى دخان سيجارتها والدموع تتساقط من عينيها، ولكن انتاب الطبيبة حدس ما، فأسرعت، عائدة إلى مكتب الطبيب "أشرف" ثم فتحت الباب بلا استئذان وهي تصيح بالطبيب:

- بتكتب النهاية يا دكتور، بتكتب النهاية.

فنظر لها الطبيب بهدوء وبابتسامة:

- كويس ده ممكن يكون بداية الشفاء.
- لكن يا دكتور كده هتدرك واقع إن "سامر" مات، وده ممكن يخليها تفكر فعلًا في الانتحار.
- لا ما تقلقيش يادكتورة، ما فيش حاجة في الغرفة ممكن تستخدمها، وعشان تطمني، ربع ساعة وهنروح نطمئن.

نظرت له الطبيبة بعدم اطمئنان، ثم توجهت إلى مقعد أمام مكتبه قائلة:

- خلاص أنا مش هتحرك إلا بعد ما أطّمن، أو خليني أراقبها من شباك الباب.

أومأ بالموافقة ثم أردف قائلًا:

- وأنا هحصلك على طول

كانت "رقية" حينها تقف على مقعدها محاولة، فك مصباح إضاءة الغرفة الخافت وبعد أن نجحت محاولاتها، اتجهت إلى ركنها المظلم وضربة اللمبة برفق حتى كُسرت وظلت قطعة محدبة مسنونة ملتصقة بقاعدة اللمبة، فجثت على ركبتيها ونظرت إلى الحائط المواجهة لركنها، وحركت يدها الحاملة للزجاجة المسنونة ثم قطعت شريان الحياة وقذفت بها وأرجعت رأسها بهدوء متكئة إلى حائط الغرفة، في حينها كانت "قمر" تنظر من نافذة الباب ولكن الظلام القاتم أخفى عنها ما يحدث، ضرب الشك قلبها فأمرت الممرض أن يفتح الباب بسرعة، ودخلت تبحث في الظلام ولكنها لم ترَ شيئًا، فأخرج الممرض هاتفه وأشعل كشافه، فوجدها غارقة وسط بحر دمائها، ومن خلفها عبارة كانت مكتوبة منذ مدة على الحائط:

"أحبك حتى الموت"

"تمت"





بدونكَ

حبيبتي كم عانيتُ من بعدك وفي بعدك، لا الحياة حياة ولا الموت يأتني، سئمت ظلام روحي، حتى شعاع ضوء، حسيس يأتي من خلف تلك القضبان مظلمًا، وحيد أنا وهمسات صوتك تهمس لأناملي لترسم ملامح وجهك على جدران غرفتي المظلمة، وحاولت نسيانك وأخرج منك ولكني فقدت ذاكرة النسيان، لا يعرف قلمي إلا ملامح وجهك يرسمها ولا يتذكر في الدنيا الآن، وملئت الغرفة بسطوع وجهك الدافئ.

حبيبتي أنا قد سئمت الدنيا بدونك
أحبك حتى الموت فلتتذكريها جيدًا

....

صدر للكاتب: رواية القبيلة الزرقاء.



